الفصل الخامس

الآريوسية والمليتية

توارت بالحجب انجم ليكين ، وهتكت ستر المشرق شمس قسطنطين ، وتطلعت الدنيا تتسمع أجراس نصر فى خريسوبوليس تعلن فى الملأ أن هذا قد أصبح للامبراطورية العاهل الأوحد ، واذا بقسطنطين يخر ساجدا يسبح بحمد قدر قد واتاه من حيث لا يحتسب ، وأغدق عليه نعمة ظاهرة لا باطنة ، فاذا الامبراطورية كلها طوع أمره ، واذا هو لبشرها سيد !!

نفض قسطنطين عن نفسه غبار معركة فرغ منهـــا لتوه ، وراح يعود الى ذلك الوراء البعيد وهو بعد على الناحية الأخرى لبحر الشمال يخترق بصره الهباب والوديان ، تجاه تلك البقعـة القصية التى يهواها فـــؤاده ، الشرق ، ومرت بمخيلته تلك الأحداث المتلاحقة منذ نادى به جند أبيه ورفعوه مكانا عليا ، وكيف حالفه ذلك الطاعن ماكسيميان ، ثم كيف تألب عليـه ، وما كان من أمر ماكسنتيوس واندحاره عند القنطرة الملفية ثم دخوله مدينة الظافرين وعهده مع ليكين وحربه ضده · وأفاق من نشوة النصر قسطنطين على رنين تلك الأجراس ليرى نفسه وقـد غدا سيد الامبراطورية الواحدة الأوحـــد ·

ولم يغب عن بال الامبراطور طيلة هـــذه الرحلة الشاقة انه قد انقذ من الضياع المسيحيين ، وشـــد من أزرهم ، وانعم بالكثير عليهم ، وكم آله أن يرى وحدتهم فى الشمال الأفريقى تنفصم ، وأن يرى جهوده فى لم شعث هذه الجموع تذهب أدراج العناد ، وكم أمل أن يجد فى الشرق تلك الوحدة الدينية التى افتقدها فى الغرب(١) · وهىء « لمحبوب الرب » أن وجوده فى

---

(١) C.A.H. XII, p. 697.

هذه الأقاليم الجديدة التى تزخر بأشياع المسيحية والتى فيها نبتت هذه ، سيهىء له ضمينا قويا يمده العون ، ويكفل له النجاح ، ويرتل له على أنغام الوحدة أنشودة السلام(٢) ٠

ولكن قسطنطين لم يكن مع المسيحيين فى الشرق بأسعد حظا منه فى الغرب ، فاذا كان دوناتيو المغرب أفسدوا عليه بهجة نصره على « طاغية روما » فان آريوسيى المشرق والميليتيين قد عكروا عليه صفو غنمه حليف الأمس ليكين ، ولم يكن قسطنطين ليسمح لجمهور النظارة فى هذه البقعة أن يشهد مسرحية « الانشقاق » التى كانت فصولها لا تزال تمثل على مسرح كنيسة أفريقيا ٠ ولم يكتمل بعد مشهدها ٠ فقد كان قسطنطين يعى تماما أن أى حادث كذلك الذى جرى فى ولاية أفريقيا يتعرض له الشرق لابد وأن يعصف بجهوده وآماله تماما ٠ فجمهور الشرق كثير وأبطال مسرحية من هذا القبيل هنا يحظون بالطبع بشهرة فائقة وعظيم الصيت ، ولابد أن يهلل المشاهدون لهذا أو ذاك ممن يجذبون روعهم ويلقون الرضى !!

لم يكد قسطنطين يغدو سيد الامبراطورية الفرد حتى حملت اليه رياح الشرق أنباء حدوث انشقاق فى كنيسة الاسكندرية ، وأن هذا قد تخطى هذه ليشمل كنائس سوريا وآسيا الصغرى . ام يكن قد ذهب من مخيلة الامبراطور بعد صورة تلك الفوضى الحادثة فى الولاية الافريقية نتيجة انشقاق كنسى أيضا ، ومن ثم صمم على أن يحسم الأمر بنفسه هذه المرة وبلا توان ٠

وقد كان طبيعيا أن تنشأ الاتجاهات العقيدية الجديدة فى الاسكندرية ، فقد كانت لقرون خلت مركز الثقافة فى الشرق حيث تدفق النشاط الفكرى فى تيار جار(٣) ، فلما جاءتها المسيحية ، لم يكن لها أن تتخلى فى ظل هذه العقيدة الجديدة عن مركزها المرموق ، ولما كانت واسطة العقد بين الشرق والغرب ، فقد أضحت تمثل بؤرة الثقافات المختلفة والعديدة ، وقدر لها بذلك أن تؤدى دورا بارزا فى المسيحية انتشارا وفكرا ، الى الحد الذى دفع واحدا من المؤرخين(٤) الى القول بأنه ليس هناك بلد من البلاد ، أثر فى

---

(٢) EVSEB. Vita Const. II, 67.
(٣) F. Jackson, op. cit. pp. 269-270.
(٤) Creed, Egypt and the christian church, p. 300.

تطور العقيدة المسيحية مثلما فعلت مصر بل ليس ثمة مدينة تركت بصماتها على المعتقد المسيحى بصورة أشد عمقا من الاسكندرية ٠

وقد قدمت الاسكندرية للعالم المسيحى أشهر آبائه فى الفكر اللاهوتى فى القرون الثلاثة الأولى للميلاد ، كان أبرزهم على الاطلاق كليمنت Clemens (حوالى ١٥٠ ــ ٢١٥) ، وأوريجن Origenes (١٨٥ ــ ٢٥٤) وديونيسيوس Dionysius (٢٤٦ ــ ٢٦٥) ، وأضحى الثغر المصرى مركز نمو الفكر اللاهوتى فى الشرق ، وأحرزت كنيسته شهرتها فى العالم المسيحى بوصفها كنيسة فكرية لم يعيها البحث فى أدق المشاكل فى الدين والعلم(٥) ٠

وكان الخلاف فى الرأى بين آريوس Arius رجل الكنيسة السكندرية ، واسكندر Alexander أسقفها ، حول مسألة شغلت أذهان رجال الفكر واللاهوت وآباء الكنيسة فترة من الزمن غير يسيرة وهى العلاقة بين الآب والابن ، الكلمة المتجسدة(٦) ، داعية هذا الجدال الذى أشتد أواره بين كنائس الامبراطورية على حد قول الامبراطور نفسه فى رسالته اليهما(٧) ٠

أما معلوماتنا عن آريوس فنستقيها من مخاصميه ٠ وان لم ينكر عليه هؤلاء واسع علمه واطلاعه واضطلاعه من المنطق حتى أنه كما قيل لم يغادر من المعرفة صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها(٨) ، الا أنهم عارضوه الرأى حول المسألة الكريستولوجية ورموه بالهرطقة ، وذلك شأن مؤرخى الكنيسة جميعا ٠ ويخبرنا سوزومين(٩) ــ دون غيره ــ أن آريوس كان أول من وافق مليتيوس Melitus أسقف أسيوط الذى انشق على كنيسة الاسكندرية فى أسقفية بطرس وشايع رأيه ، ولكنه تاب وأناب ورسم سنة ٣١٠ شماسا على يد بطرس أسقف الاسكندرية ، وفى عام ٣١١ حرمه بطرس نتيجة اعتراضه على سياسة الكنيسة ازاء الأساقفة(١٠) ٠ ولما مات بطرس خلفه أشيلاس

---

(٥) Vasiliev, op. cit. I, p. 54.

(٦) Thompson, op cit. p. 39; Latourette, expansion of Christianity, I. p. 343; Painter, op.cit. p. 15.

(٧) EVSEB. vita Const. II, 69.

(٨) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(٩) Id.

(١٠) Id.

Achillas على الأسقفية(١١) ، وتمكن آريوس من الحصول على الغفران وأعيد فى عام ٣١٣ الى وظيفته الكنسية التى كان عليها قبلا ، ثم رقى الى مرتبة القسيسين لما لمسه فيه الأسقف السكندرى من فطنة ومقدرة(١٢) ٠

ومن رسالة بعث بها آريوس الى صديقه يوساب أسقف نيقوميديا ، نعلم انه كان تلميذ لوقيان Lucianus الأنطاكى(١٣) الذى كان قد أسس بها مدرسة لتفسير الكتاب المقدس(١٤) ٠ وتدلنا الرسالة ذاتها على أن آريوس ورفاقه قد تأثروا الى حد كبير بتعاليم لوقيان ، ولقد شاع أخيرا مسئولية لوقيان عن العقيدة الآريوسية(١٥) حتى لقد قيل أن مدرسة أنطاكية لتفسير الكتاب المقدس هى موطن العقيدة الاريوسية ، كما كان لوقيان ، رأسها ، وهو الآريوسى قبل آريوس نفسه(١٦) ٠ ويصفه يوساب بأنه عاش حياة نقية طاهرة ومات ميتة نبيلة أبية(١٧) ٠

أما تعاليم آريوس فنقف عليها من رسالة لاسكندر أسقف الاسكندرية الى سميه أسقف بيزنطة ،وأخرى بعث بها الى عموم الأساقفة ينبئهم فيها بفحوى النزاع بينه وبين آريوس والدوافع التى حفزته الى حرمه من الكنيسة ، ومن مقالات أثناسيوس Athanasius خليفته ورسائله ضد الآريوسيين وعرضه لتاريخ الآريوسية وردوده على ما أثاره الفريق الآريوسى حول ما دار فى مجمع نيقية ٠ ثم من رسالة آريوس الى زميله أسقف

---

(١١) SOCRAT. hist. eccl. I, 5.

(١٢) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(١٣) THEOD. hist. eccl. I, 4.

(١٤) HIER. vir. ill. 77.
نشأت فى كل من الاسكندرية وأنطاكية مدرستان لتفسير الكتاب المقدس وقد اتخذت كل منها اتجاها مغايرا للأخرى ، فبينما اعتمدت مدرسة أنطاكية المنهج العقلى ، سلكت مدرسة الاسكندرية سبيل التفسير الصوفى المجازى ،وكان أشهر أساتذتها فى هذا المجال اللاهوتى السكندرى أوريجن ٠

(١٥) Downey, A history of Antioch in Syria, p. 338; Lietzmann, op. cit. p. 107.

(١٦) Vasiliev, op. cit. I, p. 55.

(١٧) EVSEB. hist. eccl. VIII, 13; IX, 6.

صور ووثيقة ايمـان آريوس الى زميله أسقف نيقوميديا يوساب ، ورسالة هذا الى باولينوس Paulinus أسقف صور ووثيقة ايمان آريوس التى قدمها الى قسطنطين بعد عودته من المنفى ٠

تضمنت رسالة الأسقف السكندرى الى صديقـه الاسقف البيزنطى فى بدايتها أسفا بالغا لروح الشر التى نفثت سمومها فى نفوس أناس ضعيفى الايمان ، دفعتهم جسارة وقحة الى التهجم على الايمان القويم ، وتحـذيرا مخافة أن يستطيع هذا البعض الدخول فى الكنيسة بزيف القـول وغروره ، ثم يفصح بعد ذلك عن زعيمى هذه الحـركة وهما اريوس وأشيلاس الكاهن Achillas ويروح بعد ذلك فى اطناب بالغ يشرح لزميله مبادىء آريوس ويورد الأدلة التى أعتمد عليها هذا الأخير من الكتاب المقدس ، ويتولى الرد على هذه الفكر الاريوسية محـاولا دحضهـا ، ولا تختلف أقواله بطبيعة الحال هنا عنها فى رسالته الى عمـوم الأساقفة فى مختلف الكنائس(١٨) ، ومن الرسالتين معا يمكننا أن نقف على آراء آريوس كما يراها اسكندر ٠

فالله عند آريوس لم يكن دوما آبا ، فهنـاك فترة من الزمن لم يكن فيها الله آبا ٠ وكلمة الله لم تكن دواما ، ولكنها من العدم نشأت ، فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك الذى لا وجود له ٠ وعليه فقد كان هناك زمان لم يكن هـذا ٠ ذلك أن الابن مخلوق ٠ لا يساوى الآب فى الجوهر ، ليس الكلمة الحق الطبيعية للأب ٠ ليس حكمته الحقة ٠ انما هو أحد الخلائق٠ دعى الكلمة خطأ والحكمة ٠ فهو قد نشأ بذات كلمة الله ٠ وبالحكمة الكامنة فيه ـ التى بها سواه الله وسواه ٠ ومن ثم فهو بطبيعته عرضـة للتغيير والتغاير شان كل الخلائق ٠ والكلمة غريبة عن جوهر الآب ٠ بعيدة عنه ومنفصلة ٠ والآب ٠٠ كيف يصفه الابن ؟ ! ان الكلمة لا تعرف الآب كنهه ٠ والابن لا يعاين الآب يقينا ٠ والابن لا يعرف ذات الجوهر هـو ٠ من أجلنا جبل ٠ يخلقنا اللـه به ٠ به اذن يؤدى ٠ لم يكن يوجد لولا أن شاء اللـه خلقنا ٠ واذا ماسألهم سائل عن تحول كلمة الله كما هو حادث فى الشيطان

---

(١٨) THEOD. hist. eccl. I, 3.

ما خجلوا عن الايجاب ، حاجين أنه جبل وخلق · فطبيعته للتحول قابلة(١٩) ·

أما أثناسيوس ففى رسائله ضد الآريوسيين ، وردوده عليهم حول ما دار فى مجمع نيقية ، يفسر عقيدتهم بما لا يخرج على الاطلاق عن شروح أسقفه اسكندر · ويضيف صراحة أن الفريق الأريوسى ينكر لاهوت المسيح ، فالابن عندهم ليس الها حقا(٢٠) ·

وتتلخص تعاليم الآريوسية فى أن الآب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس الها حقا · فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق · ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين ، الهان لا متناهيان(٢١) والابن ليس غير مولود وليس جزءا من غير المولود ، ولا يستمد كيانه من مادة ،وانما بالارادة والقصد وجد قبل كل العالمين · وانه قبل أن ولد أو خلق أو قصد · لم يكن · لأنه كان غير مولود(٢٢) · وعلى ذلك فالله لم يكن دائما آبا · لأنه كان وحيدا ، ولم يكن اللوجوس والحكمة قد وجدت بعد ، ثم اراد الله أن يخلق موجودا معينا أسماه اللوجوس ، الحكمة · الابن ، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته · ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن · كما أن فى الله لوجوس آخر غير الابن ، وقد سمى الابن تكريما له باللوجوس(٢٣) ولله قوة طبيعية ليس كمثلها شىء ، سرمدية · أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وانما هو احدى هذه القوى ، وفى علاقته بالمخلوقات يعتبر الخالق ، أما علاقته بالأب فهو مخلوق ، وآلة للخلق وأداة(٢٤) · والآريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين الله والمخلوقات ، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال · الابن فى رأى آريس قمة الخلائق ، غير متغير وثابت ، وليس كباقى المخلوقات ، ولكن الثبات وعدم التغير

---

(١٩) THEOD. hist. eccl. I, 3; ATHANAS. depos. Ar.
(٢٠) ATHANAS. de decr. III, 6; Epist. C. Arian.
(٢١) Dict. theol. Cath. 1, 2, Col. 1784.
(٢٢) THEOD. hist. eccl. 1, 4.
(٢٣) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786.
(٢٤) Id.

هنا لا يعنى ثباتا فى ماهية الابن ذاتها ، ولكنه ثبات بحسكم الواقع حسب ارادة اللـــه(٢٥) · ومعـرفة الابن باللـــه معرفة غير كاملة ، وذلك لان الآب غير منظور للابن ، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماما الآب · وما يراه الابن وما يعرفه فانما يعرفه بالنسبة لقـــواه ، ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هـــو(٢٦) ·

خلاصة القـول عنـد الآريوسين ان المسيح لم يعـــد الهـا حقا ، لأن اللوجوس المتجسد ليس هو الاله الحق · وبالتـــالى فهم يرتبون على ذلك ان الخلاص يتم على المستوى الأخلاقى أو بالحرى المستوى الانسانى(٢٧) ·

ويشبه اسكندر أسقف الاسكندرية فى رسالتـــه الى عموم الأساقفة آراء آريوس ورفاقه بآخـرين سبقوهم قبـــل ذلـك وادانتهم الكنيسة(٢٨) ويقول : « ان هؤلاء الأفراد فى سعيهم الدائب بكل مغالطاتهم لانكار الوهية

---

(٢٥) Id.

(٢٦) Id.

(٢٧) Dict. theol. Cath. I, 2, Col. 1786; F. Jackson, op. cit. p. 109; Davis, op. cit. p. 17; Ault, op. cit. p. 51; Painter, op cit. p. 16; A dictionary of Christian biography. art. Arianism.

(٢٨) كان من نتيجة خروج المسيحية عن نطاق التبشير بين اليهود ، ومضيها الى طريق أمم ، أن تخلت عن أسلوبها التبشيرى البسيط بمعجزات المسيح ، واختلطت بأفكار هؤلاء الأمميين وفلسفاتهم ،وأخذت عنهموأعطتهم ، ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف حتى تستطيع أن تواجه تحـــديات المفكرين والفلاسفة ، ونتيجة لذلك ظهرت فى المسيحية منذ نهاية القرن الأول للميلاد فرق عديدة تجادل من حول المسيح ، فى محاولة لارســـاء العقيدة المسيحية على أسس عقلانيـــة · وكان من بينهـــا المرقيونية Marcionism نسبة الى مرقيون الذى فرق بين اللـــه المسيح والاله يهوه ــ وأصدر عهـدا جديدا غير العهد الجديد المعروف يضم انجيـــل لوقا ورسائل بولس فقط · والمونتانية Montanism التى نددت بتعلق المسيحيين بهـذا العالم وازدياد سلطان الأساقفة · وأتباع كيرنثوس Cryinthus القائلين بأن اللـــه لم يكن هو الخالق للعالم بل قوة متميزة عنه · وفى القـــرن الثالث ظهرت دعوة بولس السميسطائى · وفى القرن الرابع كانت دعوة آريوس ·

الكلمة قد زكوا موقف من سبقوهم »(٢٩) ومن رسالته الى اسكندر البيزنطى يشير الى هؤلاء الأفراد وهم « ابيون Epion وأرتماس Artemas وبولس Paul السميسطائى أسقف أنطاكية الذى نادى بأن المسيح مجرد انسان وصل الى درجة الألوهية بكماله الخلقى · وأنكر بولس أقنومى الابن والروح القدس ، معتبرا اياها مجرد قوتين فى الله كقوتى العقل والتفكير فى الانسان وقد حرم على يد مجمع عقد فى سنة ٢٦٢ · ويذكر يوساب أن كلا من ابيون وبولس ينكران لاهـــوت المسيح ، كما أن أرتماس نادى بنفس العقيـدة ، وحرم على يد أسقف روما زفيرينوس Zephyrinus (٢٠٢ ـ ٢٢١)(٣٠) ·

وهـذه الآراء احتوتها وثيقـة هامة وهى رسالة بعث بهـا يوساب النيقوميدى الى باولينوس أسقف صور جاء فيها :

« البتة لم نسمع بكائنين ليسا بمولودين ، وما علمنا بانقسام الواحـد الى اثنين ، ولم نع على الاطلاق ولم نعتقد أن الواحد فى صورة بشرية قد تجسد · ولكنا نؤكد أن الغير مولود واحد · وواحد كذلك الذى يحيـا فيه بالحق · ولكنـــه من جوهره لم يجبـــل ، ولم يشترك أبدا والغير مولود طبيعية أو جوهرا · متميز تماما فى الطبيعة والاقتدار · جبـــل على شـبه بالخالق سجية ومقدرة · انا نؤمن بأن كيف بدايته لا يمكن التعبير عنـــه بالقـول ولا حتى بالفكر ، كما أنها على البشر خافيـــة · ومن من الكائنـات منهم اعلى · تلك آراء ندعو بها لا لأننا من نسيج خيالنا استقينا بل من الكتـاب المقـــدس من حيث نعـــلم أن الابن خلق ، ثبت · · · وقـد قال السـيد « الرب قنانى أول طريقه من قبل أعماله منذ القدم ، منـــذ الازل مسحت منذ البدء منذ أوائل الأرض · اذا لم يكن غمر ابدئت اذ لم تكن ينابيع كثيرة المياه ، من قبل أن تقررت الجبال ، قبل التلال ابدئت » (أمثال ٨/٢٢ ـ ٢٦)·

ذلك أنه لو كان من خلاله أو منه · جزء منـه أو منبثق من جوهره · لاستحال القول بخلقه · لأن ما هو من الغير مولود لا يمكن القول بخلقه ،

---

(٢٩) THEOD. hist. eccl. I, 3.

(٣٠) EVSEB. hist. eccl. III, 27; V, 28.

سواء به أو سواه • لأنه غير مولود منذ البدء ولكن اذا كانت حقيقة تسمية الابن المولود ، تدعو البعض الى الجهر بانه قد أتى من نفس جوهر الآب ، ويحمل من الآب فى الطبيعة شبها ، لأجبناهم انه ليس وحده الذى تحدث عنه الكتاب المقدس بانه المولود ، بل عن اخرين مخالفين له فى الطبيعه ، فقد ورد على لسان بشر « ربيت بنين ونشأتهم • أما هم فعصوا على » (أشعياء ٢/١) وأيضا « من ولد ماجل الطل » (أيوب ٣٨/٢٨) • والتعبير هنا لايعنى أن قطرات الندى شريكه لله فى طبيعته ولكن المعنى بالحرى أن كافة الأشياء قد تمت وفق ارادته • ليس هناك والحق أقول شيء من جوهره ، وانما كل ما فى الوجود من صنع ارادته • هو الله ، كل شيء قد جبل مثيله وعلى وفق كلمته ، خلقت بمحض ارادته هو • كل شيء من الله(٣١) •

ويصف أريوس آراء خصومه فى هذا الجدال بقوله « انهم يقولون بأن الله على الدوم كان • وكذا الابن كان • مثلما يكون الآب •• الابن يكون أزلى • الآب لا يستبق الابن فى الفكر أو لبرهة • أزلى الاله • أزلى الابن • الذى من الغير مولود مولود • الابن من الله» (٣٢) •

ويعطينا أسقف الاسكندرية عقيدته ومؤيديه بقوله :

« نؤمن كما تكرز الكنيسة الرسولية ، بالآب الوحيد الغير مولود ، الواجب الوجود ، لا يتغير ولا يزول ، هو هو غاية الكمال • لا يتكثر عليه نقصان أو زيادة • معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل • رب الأنبياء والرسل وكل القديسين ، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود • ليس مولودا من العدم بل من الآب • على نحو لا يدركه العقل ، فوق التعبير • ووجوده غير مدرك عند الكائنات المائتة • والآب غير مدرك لأن طبيعة الخلائق العاقلة لا تقوى على فهم هذه الولادة الالهية من الآب • ولا تزال فى آذاننا تتردد اصداء قول المخلص « ليس احد يعرف الابن الا الآب • ولا أحد يعرف

(٣١) THEOD. hist. eccl. I, 5.
(٣٢) Ibid. 4.

الآب الا ابن » (متى ٢٧/١١) · الابن لا يتغير ، والآب · الابن لا ينقص عن الآب شيئا سوى انه ليس غير مولود وهو الابن الكامل وصورة الآب التامة(٣٣) ·

هذان خصمان اختصموا فى دينهم ، راح كل يبشر بدعواه فى دوائر الكنيسة ، ويخبرنا سوزومين أن أسقف الاسكندرية لم يرد فى أول الأمر أن يشجب هذا الجدل دفعة واحدة ، ولكنه فضل السماح للفريق المضاد أن يعرض وجهة نظره فى حرية تامة حتى يستطيع الجمع المفاضلة على أساس قويم(٣٤) · وسواء صح هذا القول أم أظلته سحابة من الشك ، فالذى يعنينا أن عديدا من المجامع قد عقدت هنا وهناك أثيرت فيها تلك النقاط موضوع الخلاف ، ولكن اتفاقا فى الرأى لم يصل اليه الحزبان · وتخلى اسكندر فى النهاية عن اعتداله وأمر آريوس بقبول القول باتحاد الابن مع الآب فى الجوهر ومساواته فى الأزلية · ولكن آريوس لم يذعن لهذا الأمر ، فعقد اسكندر مجمعا فى الاسكندرية سنة ٣١٩ قضى بادانة تعاليم آريوس(٣٥) ·

وعلى الرغم من الموقف المتشدد الذى اتخذه اسكندر الآن تجاه آريوس ، الا انه يبدو أن أفكار الأخير قد لاقت رواجا بين عدد ليس باليسير من رجال الدين فى كنيسة الاسكندرية · ونقف على ذلك من رسالة اسكندر الى الأساقفة حيث يذكر أن من ارتدوا عن الدين القويم من القساوسة وتابعوا آريوس هم ·· اشيلاس Achillas الكاهن ، ايثالس Aeithales كاربونس Carpones ، وآخر يدعى آريوس Arius وسارماتس Sarmates ومن الشمامسة يوزيوس Euzoius ، ولوقا Lucius يوليوس Julius ، ميناس Menas ،هيللاديوس Helladius جايوس Gaius(٣٦) · هذا بالاضافة الى أن كثيرا من المثقفين قد اتخذ جانب آريوس ورفاقه ايمانا منهم أن عقيدتهم هى الحق ، بينما تعاطف معهم بعض آخر مدخلين فى اعتبارهم

---

(٣٣) THEOD. hist. eccl. I, 3.
(٣٤) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(٣٥) Id.
(٣٦) ATHANAS. depos. Ar. THEOD. hist. eccl. I, 3.

أن الآريوسيين قد اسيئت معاملهم وان حرمانهم ليس من العدالة فى شىء (٣٧) ٠

كان ذلك هو الوضع فى الاسكندرية فى مطلع عشرينات القرن الرابع ، غير أن الفريق الآريوس رأى من الحكمة والحصافة ، على حد تعبير سوزومين(٣٨) ، أن يبحث عن نصير خارج المدينة ، فارسلوا من لدنهم مندوبين الى بقية المدن الأخرى فى الامبراطورية وزودوهم بمكاتيب فحواها عقيدتهم سائلين اياهم ، اذا ما ارتأوا أنهم على الحق ، أن يرسلوا الى اسكندر يرجونه أن يحسن معاملتهم ،واذا ما استهجنوا تلك العقيدة فعليهم أن يبعثوا اليهم يعلمونهم الايمان القويم(٣٩) ٠ ويعلق سوزمين على هذا السلوك من جانب الآريوسيين بقوله : لم يكن الاجراء الذى لجأ اليه فريق الآريوسيين عديم الاهمية ، فقد نقل المشكلة من النطاق المحلى الى الدائرة العامة وأضحى حديث كل الأساقفة ، وكتب بعضهم الى اسكندر يتوسل اليه الا يقبل أشياع آريوس فى شركة الكنيسة مالم يطلقوا آراءهم بلا رجعة ، بينما أرسل آخرون يستحثونه أن يكون بهم رحيما(٤٠) ٠

ومن رسالة آريوس الى صديقه الأسقف النيقوميدى نعلم مدى انتشار الآراء الآريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطورية ، فقد جاء فيها ذكر الأساقفة الذين شايعوا الآريوسية وهم يوساب أسقف قيسارية ، ثيودوتوس Theodotus أسقف اللاذقية Laodicea وباولينوس أسقف صور ، واثناسيوس Athanasius أسقف عين زربة Anazarbus اهم مدن كيليكيا Cilicia وجريجورى Gregorius أسقف بيروت Berytus وآيتيوس Aetius أسقف اللد Diospolis ٠ ثم يضيف آريوس قائلا : وكل أساقفة الشرق عدا ثلاثة هم فيلوجون Philogonius أسقف انطاكية ٠هيللانكوس Hellanicus أسقف طرابلس، ومكاريس Macarius أسقف أورشليم(٤١) ٠

---

(٣٧) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(٣٨) Id.
(٣٩) Id.
(٤٠) Id.
(٤١) THEOD. hist. eccl. I, 4.

حتى ذلك الحين ، ورغم هـــذا الانتشار السريع للعقيدة الأريوسية فى الولايات الشرقية للامبراطور ، الا أن الدولة لم تسلك ازاءها بصورة ما ، ذلك أن هـذا الصراع الدائر فى الكنيسة بين رجالاتها لم يكن ليعنى الدولة عندئذ فى شىء • فقد كان ليكين لا يزال سيد الشرق ، وكان قد بدأ فى سنة ٣١٩ ــ كما قدمنا ــ يمارس من جديد سياسة العداء نحو المسيحية وأهلها ، ومن ثم لم تختلف نظرته لاشياع هذا الفريق عن نظرة من سبقه من الأباطرة وهى النظرة الكلية • ولم يكن امبراطور الشرق يخشى من هـذا الذى يدور فى الكنيسة رحاه ، فانقسام الرأى فى الكنيسة المسيحية لا يضيره فى شىء ما دام لا يفرق بين مسيحى وآخر وحيث أن حكومته تقف من المسيحية جملة موقفا عدائيا •

أما الكنيسة ذاتها فقد كان يهمها ما يعتمل فى داخلهـا من صراعات عنيفة ، وكان أسقف الاسكندرية على رأس المتحمسين بطبيعة الحـال لرأب هذا الصدع الذى أخذ يستفحل ويشتد خطره ويهدد بانقسام خطير ، وحتى يتجنب اسكندر وقوع مثل هذا الحدث ، دعا الى عقد مجمع فى الاسكندرية عام ٣٢١ ضم أساقفة مصر وليبيا ، وبلغ عـــدد من حضره أكثر من مائة أسقف قـــرر لعن آريوس وأتباعه الذين سبق لنـــا ذكرهم بالاضافة الى سكوندوس Secundus أسقف بطوليماي Ptolemais احـــدى المدن الخمس الغربية وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica (٤٢) •

وكان على آريوس أن يتصرف بسرعة حتى يدعم مركزه وآراءه ، ومن ثم رحل عن الاسكندرية شاخصا الى فلسطين ومنهـــا الى نيقوميديا حيث صديقه يوساب الذى كان يحتل مكانة مرموقة فى القصر الامبراطورى(٤٣) وراح يشـكو بثه وحزنه وما أنزل به ورفاقه اسكندر من اضطهاد • وكانت رسالته السابقة اليه قد أفصحت عن ذلك • حيث يقول آريوس : « لقد أمسينا نعانى تلف الحيـاة لاضطهاد أنزله الأسقف بساحتنا ، وما من حجـــر الا وقذفت به وجوهنا ، لفظونا ملاحدة خارج المدينة »(٤٤) •

---

(٤٢) ATHANAS. depos. Ar.; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(٤٣) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(٤٤) THEOD. hist. ecll. I, 4.

دعا يوساب الى عقد مجمع سنة ٣٢٢ ضم أساقفة بيثينيا ، قرر اتخاذ جانب آريوس وكتب الى جمهور الاساقفة يدعوهم الى نصرة الآريوسيين وقبولهم فى الشركة ، وطلب الى الأساقفة أن يسعوا جاهدين لدى اسكندر لاعادة آريوس ثانية الى الكنيسة(٤٥) · غير أن اسكندر وقف من هذا الرجاء موقف المعارضة ، وكتب بدوره الى أولئك الاساقفة يشرح لهم نواحى الخطيئة فى عقيدة آريوس وعمد الاستقامة فى ايمانه « فانا وقد عاينا دنسهم صببنا عليهم اللعنة وأعلنا كفرانهم بايمان الكنيسة القويم ، وقد أحببنا أن نحيطكم أحبابى علما · فاذا ما تجاسر بعض بالقدوم عليكم ، فلا تقبلوهم ، ولاتنصاعوا لرغائب يوساب ومشايعيه · وانه لخليق بنا نحن المسيحيين أن نولى دبرنا كل من يضاد المسيح بالقول وفكرا · انهم أعداء الرب للأرواح مفسدون(٤٦) ·

هكذا تحزب الفريقان ، وازدادت فى واقع الأمر هوة الخلاف ، وعد الفريق الآريوسى رفض اسكندر قبول زعيمه فى الكنيسة ثانية اهانة بالغة ، فساده شعور بالسخط والاستياء واشتد عزم مريديه وحماسهم لتأييد العقيدة الآريوسية(٤٧) · وأرسل آريوس بدوره رسائل الى كل من يوساب القيسارى وباولينوس الصورى ، وباتروفيلوس Patrophilus البيسانى Scythopolis يلتمس السماح لنفسه وشيعته ، حيث كانوا قبلا قد وصلوا الى منصب القسوسية ، بالتبشير والعظة(٤٨) · وتلاقت آراء ، الأساقفة الثلاثة وغيرهم من أساقفة فلسطين عام ٣٢٣ حول تأييد وجهة نظر آريوس بالسماح له وأتباعه بلقاء رعيتهم فى الكنائس كحالهم من قبل ، شريطة الخضوع لاسكندر ، آمرين فى نفس الوقت آريوس أن لا يدخر وسعا فى اعادة السلام مع الأسقف السكندرى حتى يرفرف على الكنيسة وئام(٤٩) ·

على هذا الذى بدا للجميع أن كنيسة الاسكندرية تقف فى جانب ، وفى الآخر جل كنائس الشرق الرومانى ، ولاقت عقيدة آريوس على النحو

---

(٤٥) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(٤٦) ATHANAS. depos. Ar:; THEOD. hist. eccl. I, 3.
(٤٧) SOZOM. hist. eccl. I, 15.
(٤٨) Id.
(٤٩) Id.

الذى رأينا رواجا كبيرا فى الدوائر الكنسية ، فى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، وزاد فى قوة آريوس انضمام أساقفة من ذوى الشهرة والمكانة الى صفه شأن يوساب النيوقوميدى وباولينوس أسقف صور ، ويوساب أسقف قيسارية وغيرهم كثير(٥٠) · وغدت المسألة فى غاية الحساسية والأهمية بين الآريوسيين وخصومهم ، مجموعة تحاول جاهدة اقناع الرجال المثقفين ، وأخرى تعتمد أساسا على الجموع ، الأولى كانت قلقة تتطلع الى ارساء العقيدة المسيحية على أساس منطقى عقلى والاخرى تعتمد العاطفة فى جوهرها ، وكان لابد أن تصطدم الطائفتان(٥١) · وقد شجع آريوس ـ خاصة بعد القرار الذى أصدره أساقفة فلسطين ، فعاد الى الاسكندرية ثانية ، وعقد أنصار كل من الفريقين العديد من المجامع لاصلاح ذات البين ، أسفرت فى النهاية عن تعميق هوة النزاع بين الجانبين(٥٢) · وبذلك تعرضت الكنيسة لما لم تشهده من قبل ، حقيقة خرج عليها كثير من رجالها يدعون بآراء جديدة ، ويناوئونها السلطان ، ولكنها لم تكن على هذه الدرجة من الخطورة · وتأكل الحسرة قلب مؤرخ الكنيسة يوساب لهذا الانقسام الذى يراه ماثلا فى الكنيسة بعد أن من عليها الرب بقبس من ضياء الحرية وسلام ، فيلقى تبعة هذه الأحداث على حساد المسيحية وباغضيها(٥٣) ·

تلك كانت حال الكنيسة ، ولم تكن الدولة أسعد حظا · ففى مطلع عام ٣٢٤ كانت لا تزال هناك صفحة من صحائف الحرب الأهلية فى الامبراطورية لم تطوها المقادير بعد ، وكانت أقلام من لدم مدادها قد أعدت نفسها لتخط عليها قصة حرب طال توقعها بين قسطنطين وليكين · ولم يكد العام يولى حتى هوى فى الظل سيد الشرق ، وخط يراع قسطنطين صحيفة نصره ونهاية حلم · وكم كانت فرحة الامبراطور الجديد عندما أيقن أنه قد أصبح بين ظهرانى المستضعفين من وهبهم الحياة(٥٤) ·

وكم كان حزن قسطنطين عميقا عندما واتته الكتب تحمل له نبأ انقسام

---

(٥٠) EVSEB. vita Const. II, 61. SOCRAT. hist. eccl. I, 6.
(٥١) Painter, op.cit. p. 16.
(٥٢) SOZOM. hist. eccl. I, 16.
(٥٣) EVSEB. vita Const. II, 61.
(٥٤) Ibid. 67.

استفحل خطره فى كنائس الاسكندرية والمشرق ، ولم يكن الامبراطور قد أفاق بعد من هول صدمة الشقاق الدوناتى ، وها هو ذا يواجه انقساما أشد منه انقساما ، ولم يكن قسطنطين يعلم أبعاد هذه التفرقة ، ولكن ما أثار شجونه أن يرى فى موطن المسيحية ، الشرق ، أمله ومبتغاه ، صدعا · ويقول سوزومين « · · · لقد شاعت فى نفس قسطنطين الحيرة واستبد به الغضب وساده اضطراب لهذا الذى يرى »(٥٥) · حسب العقيدة تجرى لمستقر لها فى درب الهدوء ، فوجد فتنة تسبح فى بحر الشغب ·

عزم قسطنطين على أن يتدارك الامر منذ البداية ، وهيأت له نشوة نصره وزهو كبريائه أن بعض كلمات منه كافية لحسم هذا الأمر ، فاختار مستشاره فى الدين هوسيوس ليكون مبعوثه الى اسكندر وآريوس فى الاسكندرية(٥٦) · وحمله رسالة الى كل منهما تضمنت بالغ الحرص وعظيم القلق من أجل احلال السلام فى ربوع الامبراطورية(٥٧) ونوه بأنه عمل على تسوية النزاع الذى نشب فى أفريقيا(٥٨) مشيرا الى الدوناتيين بذلك ، وأشار الى الشرق باعتباره مهد هذا الدين ، وكيف كان يأمل أن يجد فيه الوحدة والأمان(٥٩) · وأوضح الى أى حد اغتم وحزن نتيجة هذا الانقسام الذى حل بالكنيسة(٦٠) ثم عرض بعد ذلك وجهة نظره فى هذا الصراع ، قال :

« وبعد ·· فانا على يقين أن منبع الجدل الماثل هو ذلك · فانت يا اسكندر عندما طلبت الى القسيسين ابداء رأيهم حول أمر بعينه يخص الناموس · أو بالحرى ·· يحسن قولى ، عندما سألتهم عن قضية ما من ورائها طائل !! فانك يا آريوس ، أصررت بطيش وتهور على أمر ما كان حسنا أن تعمل الفكر فيه ، ولئن خامرك ليدفنن فى غيابة الكتمان ، وها هو بينكما الخلف قد

---

(٥٥) SOCRAT. hist. eccl. I, 16.
(٥٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 7.
(٥٧) EVSEB. vita Const. II, 65.
(٥٨) EVSEB. vita Const. II, 66.
(٥٩) Ibid. 67.
(٦٠) Ibid. 68.

نشب ، بعد أن أغفلتما حق الأخوة ، ووقعت الرعيـة المقـــدسة فى تمزق حزبى • ولم يعد للجسد الواحد وجود !
والآن • • أكلاكما على أستعداد لتبديا من الرفق والتحمل قدرا واحدا فتقبلان نصح رفيق لكما يقدمه بارا قويما ؟!(٦١) •

هكذا القى قسطنطين على اسكندر وآريوس تبعه الاحداث وحمل اياهما دوافع صـــراع كان من الممكن تجنبه لو أن آريوس أغلق على الرأى الحر فكره • ويتساءل الامبراطور •

« كيف ياترى يكون نصحى ؟!

خطأ فى البدء أن تطرح القضايا على نهج هـذا ، والخطأ بعد فى نقاشها ، فمسائل الجدال هذه وليس لها من الشرعية نصيب ، وتمليها روح صـراع وليـدة فراغ أسيء شغله ، حتى ولو قصد بهـا رياضة الذهن ، ينبغى أن تظل حبيسة فكرنا ، بعيدة عن آذان الجمـــوع • أليست قلة تلك التى تعى مثلها ؟ فهى أمور علوية ذات طبيعة خفية ، ولنقـل أن واحـــدا قادر على ادراكها ، فكم يا ترى من الجمع يلم بها ؟ وحتى هذا الذى يعيها تراه لا يحيد عن سوى الصراط ؟ يتحتم علينا من ثم أن نقصد فى القول لاننا لا نقـــوى وطبيعة الحال على أن نفسر تلك المسائل . ولئن استطعنا الى ذلك سبيلا فمن من السامعين عساه أن يعهم • فالرعية لسبب أو لسبب قـــد تجـــدف أو تنشق »(٦٢) •

فالخلاف كما يبين من حديث قسطنطين لا يهمه فى شيء قدر ما يعنيه جدل الرعية ، فلو أن آريوس واسكندر أغلقـا على نفسيهما أبواب الكنيسة وراحا يقلبان ظهر الأرض وباطنها وصـولا الى لقـــاء ، ماحرك ذلك شعرة من رأس الامبراطور ، أما أن ينفتح باب البيعة وتغشى الجموع حكاية الخلاف، فذلك شيء يثير غضب الامبراطور ويؤرقه ! فالناس على جهلهم سائرون الى

---

(٦١) EVSEB. vita Const. II, 69.
(٦٢) EVSEB. vita Const. II, 69.

فرقة أو زيغ ،ومن ثم أفصح الامبراطور عن دفين غيظه ، وراح فى لهجة خالية من كل وقار يكيل للرجلين أقذع العبارات ، يحملهما تبعة الفوضى ، ويحذرهما مغبة ما ورطا فيه نفسيهما والجموع • قال :

« ولنر هل أصبنا حيث أختلفنا فى كلمات العبث والعباوة أن تعادى بعضنا بعضا ، وتمزقت جماعتنا لخلف أصابنا بكما • أنتما يا من يتعالى صياحكما حول نقاط كم هى تافهة وضيعة ، سوقية هى • وخلة حمق صبيانى ، تقف والضد من حصافة الاكليروس والعقلاء ، ذلك حديث أقوله لكما دون رغبة فى قهركما على التوافق حول هذه المسألة العقيمة مهما كان كنه طبيعتها • وفيما يختص تشجاركما على أمور لا جدوى منها ، فعليكما ان صعب الوئام ، أن تقصرا تلك على دواخل فكركما والعقل »(٦٣) •

واختتم قسطنطين رسالته بقوله « أعيدوا الى أياما خوالى • وليالى غفت فيها جفونى حتى ينالنى بهجة الضوء الوهاج ومسرة سكينة الحياة »(٦٤) •

على هذا النحو أبدى قسطنطين رأيه فى أمر الخلاف العقائدى المحتدم بين كنائس الامبراطورية فى قسمها الشرقى ، وواصح من حديثه مدى بعده عن هذه المسائل الكريستولوجية وقلقه البالغ لما نجم عن هذا الصراع من فرقة وانقسام بين رعايا المسيحية •

جاء هوسيوس برسالة الامبراطور الى الاسكندرية ، وحاول رأب الصدع الذى هز كنيستها وامتد الى الكنائس الأخرى • فدعا الى عقد مجمع دينى فى الاسكندرية عام ٣٢٤ قرر حرم آريوس ورفاقه(٤٥) • وعاد الى الامبراطور يحمل اليه أنباء اخفاق مسعاه فى التوفيق بين آريوس واسكندر • وفى طريق العودة توقف فى انطاكية منتهزا فرصة وفاة أسقفها فيلوجون Philogonius حيث دعا فى ديسمبر سنة ٣٢٤ الى عقد مجمع كبير ضم

---

(٦٣) Ibid. 71.
(٦٤) EVSEB. vita Const. II, 72.
(٦٥) Ibid. 73.

الأساقفة من كل الاقاليم التى تنظر الى أنطاكية باعتبارها عاصمتها الروحية ، من كيليكيا وميزوبوتاميا فى الشمال حتى فلسطين جنوبا ، وكان المجمع فى جملته معاديا للآريوسية فقرر اختيار يوستاتيوس Eutstathius خصم الآريوسية العنيد أسقفا للمدينة خلفا لفيلوجون(٦٦) · وقرر المجمع ايضا ادانة العقيدة الآريوسية(٦٧) وثلاثة من مؤيدى آريوس هم ناركيسوس Narcissus أسقف Neronias (بانياس) ، وثيودوتوس أسقف اللاذقية Laodicea وثيوفاب أسقف قيسارية Caesarea فلسطين ، وبعث المجمع بقراراته هذه لا الى أساقفة الشرق فحسب بل الى أسقف روما ايضا لاذاعتها فى الغرب(٦٨) ·

بهذا السلوك نقل أساقفة مجمع أنطاكية صراعا خاصا بالقسم الشرقى من الامبراطورية عدة سنوات الى الغرب ، وأضحى الجدال حول العقيدة الآريوسية يغطى كنائس الامبراطورية بضوضائه · وقد انعكس هذا على سلوك الامبراطور ذاته ومحاولته حل هذه المشكلة التى اتسعت حلقة روادها ، فقد كانت النية متجهة فى أول الأمر ، بعد أن تبين اخفاق هوسيوس فى الاسكندرية ،الى عقد مجمع يضم أساقفة الشرق فى مدينة أنقره ·وقد ظهرت هذه الفكرة أولا لدى المجمع الذى عقد مؤخرا فى أنطاكية(٦٩) · على اعتبار أن هذا الجبل قائم فى الولايات الشرقية · فلما أنبأ مجمع انطاكية البابا بحقيقة النزاع ، وأصبحت المسألة معلومة لدى الغرب · قرر قسطنطين أن يكون مجمعه المقبل مسكونيا يضم أساقفة الامبراطورية كلها ، ليكون قرارهم عاما حازما ، ورأى قسطنطين عقد المجمع فى مدينة نيقية Nicaea فى بيثينيا (مكانها الآن قرية ازنيق Isnik التركية)(٧٠) حتى يتمكن أساقفة ايطاليا وباقى كنائس أوروبا من حضور المجمع وللاءمة مناخها ، وفوق هذا وذاك حتى يكون نفسه على مقربة من متابعتهم والاشتراك فى مناقشتهم(٧١) ·

---

(٦٦) Jones, Later Roman Emire, I, p. 86.

(٦٧) Downey, op. cit. p. 351.

(٦٨) Jones, Constantine, p. 150.

(٦٩) Downey, op cit. p. 351; Palanque, Bardy, Labriolle, op.cit. III, p. 80.

(٧٠) Backhouse, op.cit. p. 399.

(٧١) EVSEB. vita Const. III, 6. 7.

كان مجمع نيقية أول مجمع مسكونى Ecumenical شهدته الكنيسة ، وقد عقد بناء على دعوة وجهها الامبراطور قسطنطين الى مختلف كنائس الامبراطورية ويعد يوساب ذلك العمل من جانب الامبراطور اعترافا منه بأيادى المخلص البيضاء عليه(٧٢) ،وكان فى حد ذاته محاولة جديدة وجريئة لحل الخلاف الحادث فى الكنيسة · حقيقة جرت عادة الكنيسة قبلا على عقد المجامع الدينية لادانة « بدعة » جديدة أو القضاء على « انشقاق » ، ولكنها كانت فى معظمها مجامع محلية Synods يلتقى فيها الأسقف والقسوس والشمامسة فى مركز كل أبروشية ، وربما اتسعت قليلا لتشمل كنائس الولاية أو الاقليم(٧٣) ·

لعل قسطنطين قد أفاد من التجربة التى قاساها فى ولاية أفريقيا ، خاصة وان الدوناتيين رفضوا الامتثال لقرارات مجمعى روما وآرل ، وعلى الرغم من أن الأخير كان يضم معظم أساقفة الغرب عندئذ ، ويمثل عالمية عالم قسطنطين انذاك · الا أن الدوناتيين لم ينصاعوا لما أسفر عنه لقاء الاساقفة ، فلا يبعد اذن أن يكون الامبراطور قد أراد بمجمع نيقية المسكونى أن يكون قاضيا جملة وتفصيلا على هذا النزاع المستفحل فى الكنيسة · ولابد أن يكون قسطنطين قد وعى تماما مدى الخطورة التى تهدد وحدة الامبراطورية من جراء هذا الصراع · فاذا كانت المسألة الدوناتية اقتصرت على ولاية أفريقيا وحدها ، فأخذت بذلك الطابع المكانى ، فان الاريوسية لم تكن كذلك حيث امتدت من الاسكندرية لتشمل طيبة وليبيا وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، وهى مناطق طالما هفا اليها فؤاد الامبراطور وكم راودته آمال هدوء وسلام أمل أن يجدها هناك · ومن ثم فقد أراد الامبراطور أن يحسم الامر دفعة واحدة بهذا المجمع الذى يضم هذا العدد من رجال الكنيسة فى الشرق والغرب ، ولعل هذا بين فى خطاب قسطنطين الذى وجهه الى أعضاء المجمع ، يقول :

« أحسست وخزا فى روحى ، وبدا لى أن الأمر ليس بقليل فى الأهمية ، ومن ثم فقد حدتنى الرغبة فى تقديم حل لهذا الشر ، وعليه فقد دعوتكم

---

(٧٢) Ibid. 8.

(٧٣) Thompson & Johnson, op.cit. pp. 46-47.

للحضور ، وانى اذ أشعر بارتياح عظيم وأنا أشـــهد مجمعكم ، لعلى يقين بان آمالى ستغدو حقيقة اذا ما قدر لى أن أرى وحدة قراركم »(٧٤) ٠

ثم ها هو قسطنطين يبتهل الى الاساقفة آمرا أن يجـدوا طريقهم على الفور الى الوحدة والوئام قائلا :

« يارفاقى الاعزاء ٠٠ يا رجال الله ، يا أتباع من هو سيدنا والمخلص ٠٠ باللـــه لا تتباطأوا ٠٠ لا تتوانوا ، تعبدوّن على التو فى نبـذ دواعى فرقة شاعت بينكم ، ولتمحون ركائز جدالكم ، وما ذلك الا بأن تحتضنوا أغصان السلام ، فان فعلتم كنتم فى ذات الوقت تسلكون طريقا رضى عنـــه الرب العلى ، وتقدمون لشخصى فضلا كبيرا ٠ ٠ أنا وليكم والصفى(٧٥) ٠

أراد قسطنطين بجمع هذا الحشد من الاساقفة ، بناء على دعوته ، أن يثبت سلطانه فوق الكنيسة وأن يظهر للرعيـــة المسيحية مدى حرصه على العقيدة وحـدبه على تخليصها من أية شائبة ، وذلك شىء نلمسه فى رسالته التى دعا فيها الأساقفة لهـذا المجمع حيث أبدى رغبته الأكيدة فى الاشتراك فى المناقشات الجدالية العميقة وأصر على متابعة أعمال المجلس(٧٦) رغم عدم المامه بالمسائل الكريستولوجية التى يدور الجدل حولها كما وقفنا على ذلك من رسالته الى اسكندر وآريوس ٠

على أية حال فقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته مظاهرة دينية قصد بها الامبراطور اعلاء شأوه وبسط نفوذه على الكنيسة المسيحية ورجالها ، فكما كان الامبراطور فى الدولة الرومانية هو الكاهن الاعظم Pontifix Maximus وهو لقب لم يتخل عنه قسطنطين ، فقد أراد بالتالى هنا أن يغـدو رجـــل المسيحية الأول الذى اختارته العناية الالهيـــة ليقر على الأرض السلام ، وليمجد الرب فى الأعالى !

ولم يقف دور قسطنطين عند حد ارسال دعوته الى الاساقفة وحسب ، بل تخطاه الى التكفل بنقل المدعوين الى نيقيـــة ، فسمح للبعض باستخدام

---

(٧٤) EVSEB. vita Const. III, 12.
(٧٥) Id.
(٧٦) EVSEB. vita Const. III, 6-7.

وسائل النقل العامة ، وأمد البعض الآخـــر بالخيول اللازمة لسفرتهم حتى لا يشعر رجال الله بضائقة أو مشقة(٧٧) . ولبى الجميع الدعوة وارتحلوا الى هناك يحدوهم جميعا الأمل فى نتائج طيبة يمكن أن يسفر عنهـــا هذا الاجتماع(٧٨) . ومثـــل فى المجمع أساقفة من ســـوريا وكيليكيا وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين ومصر وطيبة وليبيا وميزوبوتاميا وآســـيا وفريجيا وجالتيا وباميفايا وكبادوكيا ومقدونيا وأخايا وابيروس ويراقيا واسبانيا ، كما حضـــره مندوبون من فارس وسكيثيا وبونطس . أما سلفستر أسقف روما فـــلم يحضر وأرسـل فيتـو Vito وفيكينتيوس Vicentius مندوبين عنه(٧٩) ، ويذكر سقراط أن قسطنطين دعا الى الاجتماع أكسيوس Acesius أسقف النوفاتيين(٨٠) ، ويضيف أن احدا قبله لم يذكر هذه الواقعة ولا حتى يوساب نفسه ، ويقول انه تلقاها عن رجـل طاعن فى السن كان على مقربة من هذه الأحداث(٨١) .

ويختلف المؤرخون فى عدد أساقفـة المجمع ، فيذكر يوساب(٨٢) أنهم حـوالى ٢٥٠ أسقفا ، على حين يحـــددهم سقراط بـ ٣٠٠ أسقف(٨٣) ، أما سوزومين فيقول أن عـــددهم كان ٣٢٠(٨٤) ، ويخبر أثناسيوس أنهم كانوا ٣١٨ أسقفا(٨٥) وان كان عددهم عند ثيودوريت يصل الى ٢٧٠(٨٦) وربما كان هذا التفاوت راجعا الى تعمد هؤلاء ، وكلهم للآريوسية عـدو ،

---

(٧٧) Ibid. 6.

(٧٨) Id.

(٧٩) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM, hist. eccl. I, 17.

(٨٠) نسبة الى نوفاتيانوس Novatianus أحد رجال الكنيسة المتطرفين فى روما ، الذى ناصب كورنيليوس Cornelius أسقف روما فى خمسينيات القرن الثالث ، العداء ، للخلاف حول قبول المارقين زمن الاضطهاد ثانية فى الكنيسة ، ويطلقون على أنفسهم المتصهرين ، شـــأن الدوناتيين فى أفريقيا والمليتيين فى مصر ، وكان سقراط المؤرخ يميل الى هذه الطائفة .

(٨١) SOCRAT. hist. eccl. I, 10.

(٨٢) EVSEB. vita Const. III, 8.

(٨٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(٨٤) SOZOM. hist. eccl. I, 17.

٨٥) ATHANAS. hist. Arian. 66.

(٨٦) THEOD. hist. eccl. I, 7.

اغفال ذكر أسماء الأساقفة الآريوسيين وان كان الشائع أن عددهم ٣١٨ أسقفا(٨٧) · وكان أغلب الحضور يمثل أساقفة الكنائس الشرقية أما كنائس الغرب فلم يتجاوز عدد مندوبيها الثمانية · وقد شهد مجمع نيقية عدد من الشخصيات البارزة من رجال الدين فى الشرق على غرار اسكندر أسقف الاسكندرية وشماسه أثناسيوس الذى نال شهرة فائقة نتيجة حواره مع الآريوسيين ، ويوساب أسقف قيسارية ، ويوساب الأسقف النيقوميدى ، ويوستاتيوس أسقف انطاكية ، ومارکللوس أسقف انقرة ، ومكاريوس أسقف أورشليم(٨٨) ·

ويرسم سوزومين صورة حية لما كانت عليه الحال فى نيقية عندئذ ، ويحدثنا حديثا شيقا عن أولئك الأساقفة شهود المجمع ، فبعضهم تحنى له الهام تقديرا لعلمه وفصاحته ووعيه للكتاب المقدس ، وبعض ثان تعرف فى وجوههم مسحة الزهد وجلال الخشوع ، وثالث جمع هذا كله ، ومن الرجال من مهر فى الجدل وبرع فى النقاش · ولكن هذا لم يحل دون ارتحال بعض الأساقفة الى هناك لقضاء حاجياته وشئونه الخاصة بعد أن وجدها فرصة سانحة ليتخلص من حيف نزل به أو ظلم ألم به ، وغيرهم راح يتلمس اخطاء الآخرين ليقدمها فى شكاية الى الامبراطور طالبا منه العدل والقصاص(٨٩) ·

وفى ٢٠ مايو ٣٢٥ التأم عقد المجمع(٩٠) ، ويصور يوساب اللحظات التى سبقت دخول الامبراطور القاعة ثم تلك اللحظة الحاسمة التى « شرف فيها قسطنطين جموع الحاضرين بمقدمه بكونه رسول السماء » ، ويمضى المؤرخ الكنسى بعد ذلك يخلع صفات التمجيد على امبراطوره(٩١) · ويرسم صورة لأولئك الجلوس الذين أحاطوا به ، والذى كان هو أحدهم ، ثم يقول ان الأسقف الذى كان يحتل المكان الرئيسى عن يمين الامبراطور نهض وخاطبه شاكرا حسن صنيعه الذى اسداده للدين القويم ، مثنيا على

---

(٨٧) Duchesne, ip. cit. II, 144.
(٨٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 13; SOZOM. hist. eccl. I, 17.
(٨٩) SOZOM. hist. eccl. I, 17.
(٩٠) Hefele. op. cit. I, 1, pp. 416-419; Palanque-Bardy-
(٩١) Labriolle, op. cit. III, 10.

فضائله وعظيم خلاله وسجاياه(٩٢) · وعلى الرغم من أن يوساب لم يفصح لنـــا عن شخص ذلك الأسقف ، الا أنا نعلم من سوزومين أنه لم يكن سوى يوساب نفسه(٩٣) ·

انتهى يوساب من القاء كلمة الافتتاح والترحيب بالامبراطور ، فظلت القاعة برهة من الصمت تعلقت فيهـا كل العيون بالامبراطور الذى ما لبث أن قطع هذا السكون وراح يردد فى نغمة هادئة :

« أعزائى ·· لـكم داعبنى الأمل منذ أمد أن أحظى برؤياكم والكل متحد · والان وقد تحقق الأمـل ، أشعر لزاما على أن أتقدم بالشكران لاله الكون ، فقد انعم على بخير جـديد ، ومنحنى من البركات ما فاق ما سبق ، فها أنذا أشهدكم وقد جمعكم على الوحدة وئام عاطفة واحدة · الى الله ابتهل أن يكف أيدى السوء والفحشاء عنا وأن لا يسمح للخصم أن يعكر صفو سلام بلدنا السعيد واليه أضرع بعد أن زالت بيد الرب مخلصنا ، بغضـــاء الطواغيت الآثمين ، الا تقدم نفس أمارة بالسـوء تحيك المؤامرات الدنيئة من أجـــل تعريض شريعة الله للتجديف والزيغ · فالصـراع الداخلى فى الكنيسة ـ يعد فى رأيى ـ أشد خطرا من أى حرب أو نزاع · أن خلافاتنا هذه تبدو لى أكثر فاجعة اذا ما قورنت بأى تكل خارجى ، وعليه لما كنت بمشيئة الرب وعونه قد قهرت الاعداء ، قدرت أنه لم يعد باقيا الا أن أقدم فرائض الشكر لله والثناء ، وأشارك بهجة هؤلاء الذين رد اليهم الله الحرية بى »(٩٤) ·

ثم راح يحدثهم بعد ذلك عن الأسباب التى حفزته الى توجيه الدعوة اليهم للاجتماع ، وأمله الكبير فى أن تلتقى آراؤهم على قول واضح لا خلاف عليه ، حتى تتحقق الوحدة ويسود السلام · ورغم أن الحضور كان جلهم من الشرق الذى يتحدث اليونانية ، الا أن الامبراطور القى كلمته باللاتينية ،

---

(٩٢) Ibid. 11.
(٩٣) SOZOM. hist. eccl. I, 19.
(٩٤) EVSEB. vita Const. III, 12.

ويبدو هذا أمرا طبيعيا يتفق وقلة المامه باليونانية ، وذلك شيء نعلمه من يوساب وسوزومين(٩٥) · وان كان المؤرخ جونز يعلق على ذلك بقوله ان قسطنطين فعل ذلك لا لجهله باليونانية ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللاتينية كلغة للامبراطورية(٩٦) · خاصة وان اليونانية كانت عندئذ لغة الكنيسة(٩٧) ·

أعطى قسطنطين بنهاية حديثه اشارة البدء لرجال الكنيسة فى عرض قضاياهم ، ولكنهم بدلا من أن يبحثوا بداءة ما لأجله دعوا ، راح بعضهم يكيل للآخر الكثير من الاتهامات ،واستحالت القاعة الى ميدان يتبارى فيه المتخاصمون(٩٨) · فوقف الامبراطور بذلك على حقيقة ما كان يتمنى رؤياها ، ووضح له أن أمل وحدة الامبراطورية عقيديا ليس بالسهولة التى طواها به سياسيا وعسكريا ·

ومرت الأيام والامبراطور يشهد كل يوم مزيدا من هذه الشكايات ، فلما هاله ما رأى حدد يوما وأمر بالاتهامات وردودها فجيء بها ، ثم راح يتفرس وجوه الحاضرين مخاطبا ضمائرهم وعقولهم قائلا :

« ترى ·· ما كل هذا ؟! ذاك شيء يؤتى به يوم الدينونة للعرض والحساب يفصل فيه القاضى الأعظم ·· أما أنا فلست الا بشرا مثلكم · وانه لشر لى ان تشملنى فى كل الأمور صلاحية ، فما بالكم وكل الخصوم رجال الله :! ما كان لهم أن يقفوا واياهم طرفى نقيض ، فلتقتدوا بالمحبة السماوية ورحمة الرب ، وليحل بينكم الوئام · اذن ·· لنطرح على التو شكاياتنا ، ولنعط كل اهتمامنا لشيء من أجله جئنا · ذلكم هو الايمان »(٩٩) ·

وعليه فقد أصدر الامبراطور أمرا فجمعت حصيلة الأيام من الاتهامات وأطعمت بها النيران(١٠٠) ·

---

(٩٥) EVSEB. vita Const. III, 13; SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(٩٦) Jones. Constantine. p. 156.
(٩٧) Davis, op. cit. p. 18.
(٩٨) SOZOM. hist. eccl. I, 17.
(٩٩) Ic.
(١٠٠) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

تفرغ المجمع بعدئذ لمناقشة موضوع العقيدة ، ومحاولة التوصل الى صيغة للايمان ترضاها الكنيسة كلها . وعقدت اجتماعات جانبية عديدة دعى اليها آريوس ليوضح عقيدته . وراح كل فريق يعرض حججه وأسانيده ، ولكنها لم تسفر عن شيء سوى شهرة اكتسبها بعض الشخصيات منها أثناسيوس السكندرى(١٠١) . وعادت حمى الجدال والنقاش من جديد تسرى بين أعضاء المجمع . ويمتدح يوساب صبر الامبراطور وسعة صدره لتحمل هذا الفريق أو ذاك . مثنيا على أولئك الذى أحسنوا الحديث ، مستهجنا من أبدى ميلا للعناد والمهاترة ، وقد أخذ نفسه بالشفقة والرحمة على كل فرد ، بل انه قاد أحيانا أشد المتخاصمين وأعتاهم الى التسامح والوئام ، وتمكن ببشاشته التى كان يوجه بها حديثه الى الجميع ، أن يظهر بصورة جذبت اليه أفئدة الحضور وازداد حبهم له وتعلقهم(١٠٢) .

أما ما دار فى المجمع وما تمخض عنه ، فلنترك الحديث لشيخ مؤرخى الكنيسة يوساب يروى ذلك . كما رواه من قبل لأهل بيعته فى قيسارية فى رسالته التى بعث بها اليهم ابان انعقاد المجمع يقول : « لعله قد نمى الى علمكم من مصادر أخرى ما تقرر بشأن ايمان الكنيسة فى مجمع الأساقفة العام فى نيقية . فصيت جليل الأعمال يسبق الرواية عنه . ولكن خشيتى من تسرب شائعات لا تتفق والصدق ، قدرت لزاما على أن أوافيكم أولا بصيغة الايمان الى عرضناها ، وأثنى بتلك التى نشرت مع الاضافات التى أدخلت على دستورنا ، وفيما يلى سأتلو عليكم ما قرأته فى حضرة امبراطورنا الورع ، والذى قيل عنه انه على الحق المبين . ذلكم قانون ايماننا .

« وفق ما تعلمنا بادىء ذى بدء ، وما لقنا وقت العماد وما تلقينا عن أساقفة سبقونا ، وما علمنا من الكتاب المقدس وفق ما يؤمن به القسيسون والأساقفة وبه يبشرون . نؤمن نحن ، ونفصح على الأساس عن ايماننا .. نؤمن بالله واحد . آب قدير . خالق كل شيء . ما يرى وما لا يرى ، وبرب واحد

---

(١٠١) Id.

(١٠٢) EVSEB. vita Const. III, 13.

يسوع المسيح ، كلمة الله ٠٠ اله من اله ٠ نور من نور ٠ حياة من حياة ٠ الابن الوحيد المولود ٠ أول من ولد دون سائر الخلائق ، مولود من الآب قبل كل الدهور ٠ كل شيء به كان ، الذى من أجل خلاصنا تجسد ، وعاش بين البشر ، تألم وقام فى اليوم الثالث ، وصعد الى الآب وسيأتى ثانية فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، نؤمن بالروح القدس الواحد ٠ نؤمن بوجود ودوام كل ذلك ، الآب فى الحق هو الآب ، والابن هو الابن ٠ والروح القدس هو الروح القدس ٠ كما فعل سيدنا حين بعث تلاميذه ليبشروا بالانجيل قائلا : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ٢٨/١٩) ٠

نحن مستمسكون بالايمان هذا ، وعليه نحيا حتى نموت ، لاعنين كل هرطقة دنسة ، ونشهد الله القدير وربنا يسوع المسيح ، أننا كنا نعتقد هكذا بملء قلوبنا وبروحنا منذ وعت نفوسنا ذواتنا ، ونملك من الأدلة ما يريكم بل ويقنعكم أنا بهذا آمنا وكرزنا ٠

« عندما افصحنا عن هذه العقيدة ، لم يكن هناك من يفندها ، بل ان امبراطورنا الحبيب نفسه كان أول الشهود على صدق ايماننا ، وتوافقت معها آراؤه ، وراح يحث الآخرين على التوقيع عليها ، وقبول كل ما احتوته من عقيدة على أن تضاف اليها عبارة واحدة هى « من نفس الجوهر » « الهوموسية "Homoousius" (Consubstantial) وأوضح الامبراطور أن هذه الاضافة لا تعنى أية صفات جدية أو تحول ، لأن الابن لم يشتق وجوده من الآب بانقسام أو انبثاق ، ذلك أن الطبيعة اللامادية المجردة اللاجسدية لا يمكن بحال أن تخضع لصفة جسدية أو تحول ، تلك أمور ينبغى ادراكها باعتبارها تعاليم علوية خفية ، على هذه الشاكلة حاج امبراطورنا التقى الحكيم ٠ وقد أسفرت اضافة عبارة « من نفس الجوهر » عن ايجاد الصيغة التالية :

نؤمن بالله واحد ٠ الله الآب ٠ ضابط الكل ٠ خالق السماء والأرض ، ما يرى وما لا يرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ٠ المولود من الآب قبل كل

الدهور • نور من نور • اله حق من اله حق •• مولود غير مخلوق • مساو للآب فى الجوهر •الذى كل شىء به كان • هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن اجل خلاصنا نزل من السماء ، وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، تأنس وصلب على عهد بيلاطس النبطى ، تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب • وصعد الى السماوات وجلس عن يمين أبيه ، وايضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات ، الذى ليس لملكه انقضاء » •

وعندما سجلوا هذه الصيغة لم تتركها دون فحص فى جزئها القائل بأن الابن من نفس جوهر الآب وبرزت مساءلات ونقاش ، وبحث بدقة تامة مضمون هذا القول ، وعليه فقد اقتيدوا للاعتراف بأن عبارة « من نفس الجوهر » تعنى أن الابن من الآب • وليس جزءا منه • ومن ثم فقد رأينا من الصواب تقبل هذا الرأى حبا فى السلام ، وخشية الانحراف عن قويم الايمان • ولنفس العلة قبلنا عبارة « مولود غير مخلوق » •• فقد قالوا ان كلمة مخلوق تنسحب على سائر الخلائق ، ولا يصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشىء مخلوق ، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق • والكتاب المقدس يعلم بأنه مولود من الآب بطريقة يصعب ادراكها ولا يمكن التعبير عنها لبنى البشر • ونفس الشىء يخص عبارة « من نفس الجوهر مع الآب » وعندما فحصنا ذلك قبلناه لا على معنى اتصاله بالجسد أو مشابهته بالكائنات الفانية ، وقد اتضح أيضا أن هذا لايعنى انقساما فى الجوهر أو انبثاقا أو تحولا أو تغييرا أو تضاؤلا لقدرة الآب ، فذلك كله غريب عن طبيعة الغير مولود • ولقد استقر الرأى على أن القول بعبارة « من نفس الجوهر مع الآب » تعنى أن ابن الله لا يشبه ، بأى حال من من الأحوال المخلوقات التى جبلها ، ولكنه بالنسبة للآب ، الذى ولده ، مثيل له تماما فى كل شىء لأنه منجوهر وفحوى الآب• وبعد أن أعطىهذه التفسير للعقيدة ، بدا لنا صواب موافقتنا عليه ، خاصة واننا ندرك أن القدامى من مشاهير الأساقفة والكتبة ، قد استعملوا عبارة « من نفس الجوهر » للتدليل على الوهية الآب والابن •

« تلكم هى الظروف التى رأيت لزاما على ابلاغكم اياها حول الصيغة

التى نشرت عن الايمان ، ولقد وافق عليها جمعنا بعـــد تمحيص وفحص للآراء دقيق فى حضرة امبراطورنا الحبيب · ومن أجل الدواعى التى سبق لنا ذكرها قبلنا جميعا هذه الصيغة ، لانهـا تحرم استخدام الالفاظ التى لم ترد فى الكتاب المقدس ، والتى بسببها قام النزاع والشقاق داخل الكنيسة ، وحيث أن الكتاب المقدس أو ما هو من شكلها ، بدا لنـا عدم معقولية تداول هذه العبارات ، واقتناعا بهذا الرأى ، رأينا صواب الموافقة لاننا لم نسمع من قبل ولا اعتدنا مثل هذه التعبيرات · وزيادة على ذلك فان ادانة القـول بأن « الابن لم يكن قبـل أن يولد » لم يرد عبـــارات من قبيل « من العـــدم » و « وكان هناك وقت الابن فيه لم يكن » لاتبدو متضمنة عدم تناسب أو ملاءمة ، فالجميع متفق على حقيقة انه ابن الله قبل ولادته بالجسـد · ولقـــد راح امبراطورنا محبوب الرب يفسر أصل الابن الالهى ووجوده قبل كل الدهور ، لأنه بحق كان فى الآب دون توالد حتى قبل ولادته · فالآب دوما هو الآب · تماما كما انه على الدوام الملك المخلص ، وبحق هو كل شىء لم يعتوره تغير أو تبديل »(١٠٣) ·

هـــذه صورة لما دار فى المجمع النيقى المنعقد فى مطلع القرن الرابع للبحث عن قانون للايمـان القـــويم ترتضيه الكنيسة الجامعة ، ونعلم من اثناسيوس(١٠٤) أيضا أن مسالة الاتفاق على صيغة لهذا القـانون لم تكن سهلة ميسرة · فقد طلب بداءة الى الفريق الآريوسى أن يعرض آراءه ، ولما تم ذلك تولى الأساقفة المعارضـون الرد عليهـــا وشجبها ، واستغرق ذلك فترة من وقت المجمع ليست بالوجيزة ، وبعدها راح المؤتمرون يناقشـــون حول الصيغة التى يبتغونها حتى توصلوا اليها على النحـــو الذى اعلمنا اياه يوساب ·

يتضح من رسـالة يوســاب أن أهم نقطتين للخـــلاف بين الفريقين انحصرت فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر والأزلية ، فهـذه تمسك بهـا مناهضو الآريوسية التى أصر اتباعها على القول بأن الابن مشابه للأب فى الجوهر « الهومويوسية » Homoiousius وليس مساويا له فى الأزليـــة لأن

---

(١٠٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; THEOD. hist. eccl. I, 11.

(١٠٤) ATHANAS. de decr. II, 3.

الآب سابق عليه فى الوجود وهناك فترة لم يكن فيها الابن(١٠٥) . والثانية القـــول بالخلق أو الولادة . فالآريوسيون لم يفرقوا بين كلمتى مولـــود ومخلوق ، فهم يستخدمون اللفظتين للتعبير عن نفس المعنى ، وتلك حقيقـة نلمسها من رســـالة يوساب القيسارى الى أهل بيعته ، ففى قانون ايمانه الذى قدمه الى المجمع النيقى لم يذكر شيئا من هذا القبيل ، ولكنـــا وجدنا عبارة « مولود غير مخلوق » قد احتواها قانون الايمـــان النيقى ، ويذكر يوساب بعد ذلك أن المجمع ارتأى وضع هذه العبارة معللا بأن كلمة مخلوق تنسحب على سائر الأشـــياء التى خلقت بالابن ، ولايصح أن يكون الابن شبيها بها ، وعلى هذا فهو ليس بشىء مخلوق شأن ما خلقه بيده ، ولكنه من جوهر أعلى عن كافة الخلائق(١٠٦) . أما الفريق الآريوسى فلا يفرق فى المعنى بين هذه وتلك ، وذلك بين من قول آريوس حيث يذكر « انه قبل أن ولـد أو خلق .. لم يكن »(١٠٧) .

على أن الذى يعنينا من رسالة يوساب وكتابات المعاصرين ذلك الدور الذى لعبـه الامبراطور فى المجمع ، فقد أسلفنا أنه أمسك بدفة المناقشـــة يديرها يستحسن ويستهجن ، ويؤيد هذا ويعارض ذاك ، وكان من قبل قـد دعا الحضور الى سحب شكاياتهم ثم أمر بحرقها جميعها ، الى هـذا الحد يمكن مجاراة قسطنطين فيما قام به ، أما أن يتدخـــل الامبراطور فى شأن العقيدة ذاتها بالاضافة أو الحذف ، فذلك شىء يدعو للتساؤل حقـا ، اذا

---

(١٠٥) من الطريف أن هذا الخلاف العقيـدى بين الفريقين ، ينحصر لغويا فى حرف اليوتا "i" ليونانى ، فالمساواة فى الجوهر « الهوموسية Homoousius » التى اقرها مجمع نيقية ، اذا ما ادخلنا عليها حرف "i" تحولت الكلمة الى الفريق المضاد لتعنى « التشابه فى الجوهر » الهوموسية Homoiousius » . وان كانت هذه الأخيرة لم تأخـــذ حظهـا من الذيوع والانتشار الا فى عهـد الامبراطور قسطنطيوس Constantius (٣٣٧ ـ ٣٦١) ابن قسطنطين ، عندما أصبحت العقيدة الرسمية لاحدى الفرق التى تشعبت اليها الآريوسية فيما بعد ، والتى أصبحت تعرف باسم أنصاف الآريوسيين Semi-Arians .

(١٠٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

(١٠٧) THEOD. hist. eccl. I, 4; Lietzmann, op.cit. p. 109.

كان الامبراطور قد سمح لنسه أن يفعل هـذا ، فكيف تسمح له الكنيسة اذن أن يقدم على ذلك ؟!

لقد وقفنا على عدم المام الامبراطور بأمـور العقيدة من رسالته التى بعثها الى اسكندر وآريوس منذ عـدة أشهر ، وبينما هو ينعت نقاط الجدال بالتفاهة ، اذا به يترأس مجمع الأساقفة ويوجه المناقشة ، ثم يقترح أيضـا نصا فى جوهر العقيدة ، يصبح أحـد عمد قانون الايمان القويم بعد ذلك ، والكنيسة به معتزة له حافظة ! لقد علمنا أن حقيقة الخلاف بين الآريوسيين وخصومهم كامنة فى مساواة الابن بالآب فى الجوهر أو عدمه • ولما عرض يوساب قانون ايمان بيعته ، جاء خلوا من هـــذه العبارة ، ورغم ذلك فقد ارتضاها الجمع وشـــهدوا بأرثوذكسيتها ، وراح الامبراطور يحثهم على تعضيدها مقترحا فى نفس الوقت اضـــافة عبـــارة « من نفس الجوهر » وتلك نقطة على جانب من الأهمية كبير ، ذلك أو وثيقة هامة يرتكن اليهـــا أعداء الآريوسية أعنى رسالة اسكندر السكندرى الى زملائه الأساقفة ، لم تتضمن شيئا من هذا القبيل ، كما أن رسالته الى سميه البيزنطى لم تحوها • يضاف الى هذا أيضا أن مجمع انطاكية المنعقد سـنة ٣٢٤ تحت رئاســة هوسيوس الأسقف الأسبانى ، لم يشر الى هذا النص فى قليل أو كثير • وان كان الحزب المعادى للآريوسية يمتلك سببا وجيها لتجنب مثل هـذا القول ، فديونيسيوس Dionysius الكبير أسقف الاسكندرية خـلال اضطهاد دكيوس Decius وفاليريان Valerianus كان قد رفضها صراحة أثنـاء محاوراته مع بعض أساقفة ليبيا ، ولو انه احتـراما لسميه أسقف روما اضطر أخيـــرا لقبولها ، وان كان قد فعل ذلك على كره منه وبتحفظ شديد(١٠٨) •ويقـول جونز انه اذا كانت الهوموسية مكروهة تماما فى الشرق لدى عدد كبير من المثقفين ، فانها كانت مقبولة فى الغرب الغير فلسفى لمـدة تزيد على قرن • وقد رأينـا البابا ديونيسيوس يضطر الأسقف السكندرى للموافقة ، ولو مع التحفظ ، على هذا المصطلح(١٠٩) •

---

(١٠٨) Hefele. op. cit. I, 1. 342-346. Jones. Constantine, p. 161; Lietzmenn, op. cit. pp. 95-99; Duchesne, op. cit. II, p. 154.

(١٠٩) Jones, Constantine, p. 162.

ولكن الذى يدعو للتساؤل حقا ، هو انه اذا كان الأساقفة قد أجازوا ايمان كنيسة قيسارية الذى قدمه أسقفها • فما الذى حـدا بالامبراطور اذن الى اقتراح مثل هـذه الاضافة ؟ ولم يكن اقتراح الامبراطور الا أمرا واجب التنفيـذ •

لعله من معقول القول أن نذكر أن الامبراطور كان واثقـا تمام الثقة أن أساقفـة الشرق وعلى رأسـهم اسكندر لن يعارضوا هذه الارادة التى فرضت قولا ما كانوا يقبلونه قبلا ، ولمـا كان الامبراطور غير عالم بمسائل العقيدة الغامضة ، وكان هـذا المصطلح سائدا فى الغرب ، فلا يبعـد أن يكون مستشاره لشئون العقيدة هوسيوس الأسقف الغربى هـو الذى أوحى اليه بهذا المصطلح(١١٠) ،وربما يكون هوسيوس قـد ضمن سكوت الأسقف السكندرى وعدم احتجاجه على هذا الاقتراح باتفاق أجـراه معه خاصة وأن اسكندر كانت أمامه سابقة فى تجاوز سلفه ديونيسيوس الكبير عنها وان كان مرغما(١١١) •

وكان نفور قسطنطين من غموض المسائل العقيدية دافعا له على تقبل أى اقتراح يوحى به اليه ذلك الأسقف الأسبانى • فقـد كان هوسيوس يمثل على الاقل فى هذه الآونة وجهة نظر الغرب ، وقد رأى الامبراطور أن اجابة هوسيوس الى مطلبه كفيلة بأن تجعل كنائس غرب الامبراطورية تقف مؤيدة لأى قانون يصدره المجمع بخصوص العقيدة ، ومن نفس الزاوية ننظر أيضا الى موافقة الامبراطور والأساقفة على قانون الايمان اليوسابى القيسارى • فقد كان يوساب بعقيدته يمثل الفريق المعتدل بين الأحزاب المتصارعة(١١٢) ، وقد اتضح هذا فى موقفه وزملائه أساقفة فلسطين تجاه آريوس واسكندر سنة ٣٢٤ •

وهكذا أيقن الامبراطور أن الموافقة على قانون للايمـان تقبله كنائس الغرب ، ولا ترفضه كنائس الشرق ، واضافة نص ترتضيه هـذه ولا سبيل لتلك للاعتراض عليه ، طريق الى توحيد صفوف الكنيسة فى الشرق والغرب

---

(١١٠) Hefele. op. cit. I, 1. pp. 342-346; Duchesne, op. cit. p. 155.

(١١١) Jones, Constantine, p. 162.

(١١٢) Latourette, Christianity, 154-155.

وجمعها على كلمة سواء · وذلك واضح من قول يوساب فى رسالته ان الامبراطور كد لشرح معنى هذه الاضافة وراح يحث جموع الأساقفة على الايمان بها ، ولم يجد الامبراطور عناء فى حمل هؤلاء على التصديق على ما يريد خاصة وأن معظم المعادين للآريوسية حاضرى المجمع كانوا على درجة من السذاجة تؤهلهم لعدم معرفة هذه الأمور اللاهوتية العميقة ، وذلك شيء نقف عليه من سوزومين نفسه عند حديثه عن صفوف الوافدين(١١٣) · وان كان هذا لا ينفى وجود بعض المتضلعين من المسائل اللاهوتية · وتفصح رسالة يوساب أن الأساقفة أجبروا على الموافقة ، ونلمح فى قوله طوال رسالته نبرة امتعاض لما أدخل على عقيدته من اضافات لم تعرفها قبلا · وذلك شيء واضح فى مقدمة رسالته ونهايتها · وكأنه يعتذر لرعيته عن الاسباب الى دفعته الى قبول ذلك «ايثارا للسلام وخشية الانحراف عن قويم الايمان » ، ويؤكد هذا القول ما يذكره سوزومين(١١٤) من أن يوساب قد تباطأ قليلا فى التوقيع على قانون الايمان النيقى ·

ولقد كان طبيعيا أن يعترض الفريق الآريوسى على قانون الايمان هذا ، ويخبرنا سوزومين أن عدد من وقفوا الى جوار آريوس فى اول الأمر قد بلغ سبعة عشر أسقفا(١١٥) ، استسلمت غالبيتهم حتى وصلوا بعد ذلك الى خمسة أساقفة هم يوساب أسقف نيقوميديا وثيوجنيس Theognis أسقف نيقية ، وماريس Maris أسقف خلقيدونية ، وثيوناس Theonas أسقف مارماريكا Marmarica وسكوندوس Secundus أسقف بطوليمايا Ptolemais (١١٦) وان كان مجمع نيقية فى رسالته الى الاسكندرية بخصوص هذا الأمر قد ذكر أسماء الأساقفة الثلاثة الاخيرين فقط(١١٧) · الا أن هؤلاء الاساقفة قد وافقوا فيما بعد على قانون الايمان النيقى وان لم يوافقوا على قرار حرمان آريوس(١١٨) ، ولم يعترض على قانون الايمان

---

(١١٣) SOZOM. hist. eccl. I, 17.
(١١٤) SOZOM. hist. eccl. I, 24.
(١١٥) Ibid. 20.
(١١٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.
(١١٧) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(١١٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 8.

جملة وتفصيلا سوى آريوس وزميل آخر له يدعى يوزيوس Euzious (١١٩) ٠ ويخبرنا سوزومين أن الامبراطور قد تهدد بالعقاب والنفى كان من يخالف رأى المجمع(١٢٠) ٠ على هـــذا لنحو ندرك أن مجمع نيقية كانت تمثل فيه اتجاهات ثلاث ٠ حزبان متطرفان يقف كل منهما ضد الآخر ، الأول يتزعمه آريوس وثيوناس وسكوندوس وييوساب النيقوميدى ، والآخـــر على رأسه ماركللوس أسقف انقره واثناسيوس الشماس المصرى ، وبين هذين الحزبين ثالث معتدل يكره الابتداع(١٢١) ٠

هكذا أقر المجمع أن الابن مساو للآب فى الجوهر والأزليـــة ، وحرم كل من يقـول بغير هذا ، أو أنه قبـل ولادته لم يكن ، أى أنه من العـــدم وجد(١٢٢) وكذلك تقرر حرمان آريوس ومريديه ومنعه واياهم من دخـول الاسكندرية(١٢٣) ، كما قرر المجمع اعدام عمله الذى وضعه فى هذا المعنى والمسمى ثاليا Thalia (١٢٤) ٠

وحملت الأنباء هـــذه الى كنيسة الاسكندرية رسالة بعث بها أساقفة المجمع جاء فيها :

« الى كنيسة الاسكندرية ، التى حازت بفضـــل من اللـه ونعمة كل عظمة وقداسة ،الى الاخوة الأحباء فى مصر وليبيا والمدائن الخمس ٠٠ نرسل نحن أساقفة المجمع العظيم المنعقد فى نيقية تحية من عند الرب ٠

أما وقد انعقد مجمع نيقية بنعمة من الله ، ورشد امبراطورنا التقى ، الذى دعانا من مختلف الولايات والمدن ، وجدناه حـــريا بنا أن نوافيكم برسالة المجمع المقـــدس ، نعلمكم أى الأمور أثيرت ونوقشت وما تم عليه الاتفاق وتقـــرر :

---

(١٢٠) Ibid. 25.
(١١٩) SOZOM. hist. eccl. I, 20.
(١٢١) F. Jackson op. cit. pp. 306-3/7.
(١٢٢) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(١٢٣) Id.
(١٢٤) ATHANAS. orat. C. Arian. I, 4.

بداءة ، وفى حضرة امبراطورنا الدين قسطنطين فحصت عقيـــدة آريوس الدنسة ، وأجمع المجمع على ادانتهـــا ولعنها ، ســواء بسواء مع لغـــة التجديف التى روج لها زاعما أن ابن الله جاء من عـــدم ، وأنه ما كان قبل أن ولد • وأن هناك وقت لم يكن • وأن بمقدوره ، وفق ارادته الحرة أن يتحكم فى الفضيلة والرذيلة •

لقـد لعن المجمع المقـدس كل هذه المهاترات ورفض السماع لهـــذه الآراء الدنسة الحمقى التى تفيض تجديفا • ولعلكم تعلمون القرار النهائى المتعلق به ، أو لعلكم ستسمعونه قريبا ، ولكنا نمسك الآن عن اذاعته حتى لا نبـدو فى أعين الناس وكأنا نطأ رجلا نال لأجل خطاياه عادل القصاص »(١٢٥) •

وقد بدأ الامبراطور فعلا ينفذ تهديداته التى قصد بها الأساقفة المخالفين لعقيـدة المجمع الخارجين عن قانون ايمانه • فأمر ينفى آريوس خـــارج الاسكندرية هو وزميله يوزيوس(١٢٦) وألحـــق بهما سكوندوس وثيوناس الى الليريا(١٢٧) وامتد قراره ليشمل أيضا يوساب النيقوميدى وثيوجنيس النيقى الى غالة(١٢٨) وخلفهما على كرسيى الأسقفيتين أمفيون Amphion وكرستوس Chrestus على التوالى(١٢٩) ، وذلك راجع لما يذكره سوزومين من أنه بعد مجمع نيقية مباشرة ، اشتعلت مرة أخـرى المناقشات الجدليـة بين الفـــريقين فى كثيـــر من المنـــاطق وخاصـــة فى بيثينيا وهللسبونت والقسطنطينية ، وراح يوساب وثيوجنس يعلمان ، خـــلافا لمـــا وقعا عليه فى نيقيـــة ، بأن الابن ليس من جوهر مع الأب واحد • ولمـــا اتهم يوساب بذلك صراحة أمام الامبراطور ، أصر فى جرأة على رأيه وقال موجها حديثه لقسطنطين « هب أن هذا الرداء قد انفصم أمـــام ناظرى شطرين ، لعجزت أن أحاج بأن أيا منهما ينتهى الى نفس المـــادة » • فازداد الامبراطور حنقا وتولى حزنا ألا يجد أن المسألة العقائدية الشائكة لم تنته كلية بقرار مجمع

---

(١٢٥) THEOD. hist. eccl. I, 8.
(١٢٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 25.
(١٢٧) Hefele, op. cit. I, 1, p. 450; Duchesne, op. cit. II, p. 155.
(١٢٨) SOCRAT. hist. eccl. I, 8; Duchesne, op. cit. II, p. 156.
(١٢٩) SOZOM. hist. eccl. I, 21.

نيقيـة ، وها هو يراهم ثانيـــة ينشقون على أنفسهم(١٣٠) · ويضيف أن الامبراطور أسف أشد الأسف لما اقـدم عليـــه كل من يوساب وثيوجنس من قبـول بعض السكندريين المعاقبين فى الكنيسة على الرغم من أن المجمع نصحهم بالتوبة على ما ورطوا فيـه أنفسهم من « هرطقة » ، وعلى الرغم من أن الامبراطور نفسه قد أوصى بنفيهم خارج أراضيهم باعتبارهم داعيـة الانقسام(١٣١) · ولقـد ضمن قسطنطين ذلك كله فى رسالة بعث بها الى أهالى نيقوميديا تقول :

« من تراه لقن الرعية البريئة هذه العقائد ؟! من الواضح أنه يوساب شريك الطغاة جبروتهم سبب كل ما أقدم عليه ذلك الطاغوت(١٣٢) · ولقد انجلت الحقيقة فاثبتت أن من ذبح من الأساقفة كانوا أخيارا ·

ولست هنا بصدد سرد ما لحقنى من اهانات أتاها متآمر الفريق المضـاد ، بل لقـد جـاء أمر ادا ، اذ بعث بالعيون ترقبنى ، ولم يأل جهـــدا فى جمع كتائب للجبابرة معضد ، ولا يعتقدن أحـد انى مدع شيئا آنا على اثبـاته قادر · عندى الدليل · فقد جيء بالأساقفة والقسيسين من أتباعه وقد قبض عليهم · ولكن لنتخط هذه الحقائق كلها ، وما ذكرتها الا لأجعل القوم من سلوكهم فى خجل ، لا من أجل اثارة شعور بالندم ·

غير أن هناك أمرا أخشاه ، يات يقض مضجعى ، رأيتـكم قد جمعكم الاتهام واياه · لقد تاثرتم بعقيدة يوساب فضللتم بذلك طريق الصواب · ولـــكن ابلالكم يرجى اذا ما غنمتم أسقفا قلبه بقـويم الايمان معلق ، واذا ما جعلتم على الاله اتكالكم · ذلك شيء أنتم عليه قادرون ، وقد كنتم ولا ريب تمنون انتهاجه لولا أن صرفكم عنه ذلك اليوساب · وطغمة تؤيده عاتية · استغلت السلطان فضاع النظام ·

---

(١٣٠) Id.

(١٣١) Ibid. II, 22.

(١٣٢) يشير قسطنطين هنا الى ليكين وما كان من أواصر الصداقة التى تربط بين الأسقف والامبـراطور النصف الشـــرقى من الامبراطورية قبـل ذلك ·

وانى لأرى لزاما على أن أحدثكم شيئا ما عن يوساب ؛ فلعلكم تذكرون أن مجمعا عقد فى نيقية حضرته استجابة لنداء ضميرى ، يدفعنى الرجاء فى الوحدة ، وتسوقنى الحمية لاستئصال أذى أوقعته فتنة آريوس السكندرى ، التى تأجج لهيبها بفعال يوساب الحمقى ، ولكن ، اخوتى وأحبابى ، لا تدرون كيف أن يوساب ظل سادرا فى غيه الذى من الجمع أدين • ولقد راح يبعث لى خفية أناسا يرجوننى لأجله ، وبذاته توسل الى يطلب عونى لوقف قرار عزله من أسقفيته ، رغم أن جرائمه للعيان بادية • انى لعلى يقين بأن الله الذى يشملكم وايای بوافر انعمه شاهد على صدق قولى ، ولقد غرر بى يوساب وخدعنى بعدئذ كما ستعلمون جليا ، لقد كان يعمل وفق رغائبه ، لقد امتلأ عقله بخفى الشرور • وانى وان كنت أحجم عن ذكر بقية آثامه • أراه حسنا انباءكم بخطية مؤخرا جناها ، متواطئا مع ثيوجنس شريك تآمره ، ولقد بعثت الى الاسكندرية بأوامرى فيما يخص أولئك الذين هجروا الايمان القويم وزادوا بوسائلهم نار الفرقة اشتعالا ، ولكن هذا النفر من الأساقفة الذين شملتهم رحمة المجمع وعطفى أووا اليهم أولئك ، وشاركوهم دنس أعمالهم • ومن ثم فقد قررت عقاب هؤلاء الجاحدين بالقبض عليهم ونفيهم الى مكان قصى(١٣٣) •

انه الآن واجبكم أن تتجهوا الى الله بنفس الايمان الذى تمسكتم به دوما • دعونا نسعد بتعيين أساقفة قويمين للخير محبين ، واذا ما جرؤ أحد على أن يؤتى من لدنه ذكرا لهؤلاء المخربين فليعلم تماما أن قحته ستقمع بيد سلطة منحت لى لكونى للرب خادم • ليحفظكم الرب اخوتى الأحبة »(١٣٤) •

وأرسل الامبراطور الى الأساقفة والأهلين فى كل مكان من الامبراطورية يخبرهم أن آريوس ورفاقه مبتدعون مضللون ، وأن عليهم لعنة الله

---

(١٣٣) تم هذا الاجراء بعد ثلاثة أشهر من انتهاء مجمع نيقية حيث نفيا الى غالة • راجع :
Lietzmann. op. cit. p. 121; Jones. Constantine. p. 174.

(١٣٤) THEOD. hist. eccl. I, 19.

والامبراطور والأساقفة أجمعين(١٣٥) . أما كتاباتهم « فاذا عثر على أية مقالة لاريوس ، فلتقدم طعما للنار ، وذلك بغية سحق مبادئه الدنيئة ومحو ذكراه الى الأبد ، ومن ثم فانى قد قررت لئن ضبط أحد يخفى كتابا من وضع اريوس ، ولم يتقدم به على التو ملقيا اياه فى النار ، موتا يموت جزاء هذه الخطيئة ، وفور انتهاء المحاكمة سوف يلقى المذنب رادع الجزاء »(١٣٦) .

هكذا قرت عين الامبراطور بهذا الذى وصل اليه المجمع المسكونى الأول ، وخيل اليه أنه بذلك قد كسب الجولة الثانية على أعداء الكنيسة حسب دعايته ، فاذا كانت الأولى قد اقتنصها فى ميدان القتال ، وضمن بلا ريب سيادته منفردة فى طول الامبراطورية وعرضها ، فقد نال الثانية لبعض حين وسط صراع جدلى عنيف ، وعد الامبراطور هذا الأخير نصره الثانى على أعداء الله(١٣٧) . ويقول نورمان بينز تعليقا على ذلك « لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسوبوليس »(١٣٨) . وتدشينا لهذا النصر دعا قسطنطين جموع الأساقفة الحضور لحضور احتفاله بالعيد العشرينى Vicennalia لجلوسه على العرش(١٣٩) . ويعطينا يوساب صورة رائعة لهذا الاحتفال الذى شارك فيه الأساقفة الامبراطور طعامه وشرابه(١٤٠) ، ولما أذن مؤذن الرحيل دعا الامبراطور اليه جموع الأساقفة وطلب اليهم المثابرة للحفاظ على السلام وتجنب المناقشات والجدال الذى يقود الى النزاع والتخاصم ، وأوصاهم بالتسامح مع بعضهم البعض ، والتغاضى عن أخطائهم والتمسك بالمحبة والوئام(١٤١) ، ثم تفضل الامبراطور فزود كلا منهم بهدية تتفق ومرتبته الكهنوتية ، وامتدت نعماؤه لتشمل أيضا أولئك الذين لم يسعدهم قدرهم بحضور المجمع(١٤٢) .

---

(١٣٥) SOZOM. hist. eccl. I, 21.
(١٣٦) SOCRAT. hist. eccl. I, 9.
(١٣٧) EVSEB. vita Const. III, 14.
(١٣٨) C.A.H. XII, p. 697.
(١٣٩) EVSEB. vita Const. III, 14.
(١٤٠) Ibid. 15.
(١٤١) Ibid. 21.
(١٤٢) Ibid. 16.

واتسعت دائرة عطاياه لتشمل كافة الناس فى المدن والقرى ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة ، وهى الاحتفال بعيد جلوسه العشرين الذى وافق انتصار الكنيسة فى مجمع نيقية(١٤٣) · وسلم الامبراطور كل أسقف رسالة الى كنيسته تضمنت تمجيدا لشخصه وفضله فى عقد مثل هذا المجمع الكبير واشادة بجميل صنعه(١٤٤) ، وحثا للجميع على اتخاذ هذه الوحدة التى تمت باجتماع هؤلاء الأساقفة مثلا يحتذى ، والانصياع لقرارات المجمع · ثم راح يحدثهم قائلا :

« يقينا بالبرهان ·· حفاظا على رخاء ورفاهية الامبراطورية ، فكم كان فضل الله علينا عظيما · قررت أنه ينبغى أن يكون أول هدف فى مسعاى تحقيق وحدة الايمان وصادق المحبة ، وجماعية المشاعر فيما يخص عبادة القدير ، وذلك لأنا نبغى أن تحفظ هذه الوحدة بين الرعية الكبيرة التى تكون جماعة الكنيسة الكاثوليكية ، ولما كان الحفاظ على هذا لا يتأتى الا اذا تلاقى من الأساقفة جمع كبير أو على الأقل غالبيتهم فى مجمع واحد ، والا اذا تدارسوا كل التفاصيل المتصلة بعقيدتنا المقدسة ـ لم يكن هناك بد من جمع أكبر عدد ممكن فى مجمع علم · وقد حضرت بنفسى هذا المجمع · فردا عاديا وكأنى أحدكم ، وأنى لفرح فخور بأن أجد نفسى زميلكم ، وقد فحص كل موضوع بعناية فائقة حتى تبين لنا قضاء الله وحكمه الذى أحاط بكل شىء علما ، والذى شاء لنا باقرار ما اتفقنا عليه ذلك الأمر الذى يهدى خطانا الى الوحدة والوئام ، وعلى مرأى من الجميع انبلج هذا القرار ، فلم يعد هناك مكان لجدل ولا محل لنزاع يخص الايمان(١٤٥) ·· فلتقبلوا اذن بكل رغبة وحازم الارادة هذا الايضاح الالهى الحق · ولتنظروه بأنه الحق المبين ، من عند الله هبة · فما يقره مجمع الأساقفة المقدس لخليق أن يعد تعبيرا لارادة السماء »(١٤٦) ·

---

(١٤٣) EVSEB. vita Const. III, 22.
(١٤٤) Ibid. 17.
(١٤٥) Id.
(١٤٦) Ibid. 20.

واضح من هذه الرسالة مدى الجهـد الذى بذله قسطنطين فى سبيل تجميع أكبر عدد ممكن من رجال الكنيسة ، ومدى الرغبة التى كانت تحدوه من وراء السعى الدائم الى اتخاذ هـذا العمل ونجـاحه ، وهى « وحـدة الرعية » على حـد تعبيره ، وبالتالى وحدة الدولة · فقد كان هـذا هو كل ما يحرص عليه قسطنطين ·

واذا كان قد جاء فى رسالة الامبراطور هذه أنه « واحد من الأساقفة » أو أنه « زميل لهم » ، فهذه النغمة ليست جديدة على قسطنطين ، ولا تصرفنا عن الحقيقة الواضحة وهى يقينه الكامل بأنه رأس الدولة والكنيسة ، والحاكم السياسى والقـائد العسكرى والكاهن الأعلى ورئيس الأساقفة ، وهذا شىء أنبأتنا عنه الأحداث ، وأفصحت عنه رسالتـه الى ملتيادس أسقف روما ، وسياسته تجاه الدوناتيين ،ورئاسته لمجمع نيقيـة ، « وقهره » الأساقفة فيه على قبول صيغة الايمـان التى ارتضاها يوحى من مستشاره الدينى ، وسوف تكشف عنه أيضا سنوات عمره الآتية ·

لم يقف نشاط المجمع عند بحث المشكلة الآريوسية وحدها ، بل تعرض لعدد آخـر من المسائل الى تهم الكنيسة ، مثل مسألتى تحديد عيد الفصح وعمـاد الهراطقة(١٤٧) الا أن هذه الأمور لا يعنينا منها الان ما قر عليـه فيها رأى المجمع ، ولكن الذى يهمنا حقـا هو المشكلة الأخرى التى تعرض مجمع الأساقفة لبحثها وهى المسألة الميليتية الكامنة فى مصر(١٤٨) ·

تعود جـذور هذه المشكلة الى الأيام العصيبة التى عاشتها المسيحية ابان فترة الاضطهاد الأعظم على عهد دقلديانوس وجاليريوس وماكسيمين ، فيخبر يوساب أن بطرس أسقف الاسكندرية الذى خلف ثيوناس فى هـذا المنصب(١٤٩) ، قد قبض عليه وسيق مع عـدد من القسوس هم فوستوس Phostus وديوس Dius وامون Ammonius الى ساحة السجن ، واقتيد معهم

(١٤٧) EVSEB. vita Const. III, 18; Hefele. op. cit. I, 1. pp. 451-477.

(١٤٨) Hefele. op. cit. I, 1, p. 488.

(١٤٩) EVSEB. hist. eccl. VII, 32.

ايضـا فيلياس Phileas أسقف كنيسة تمويس Thmuis (تمى الأمديد) ، وهو رجل اشتهر بعلومه الفلسفية وكريم أصله(١٥٠) وهسيكيوس Hesychius وباخوم Pachomius وثيودور Theodore وهم أساقفة فى الكنائس المصـرية المختلفة(١٥١) وفى السـنة التاسعة للاضطهاد (٣١١) « كلل بطرس ورفاقه بأكاليل الشهادة »(١٥٢) ٠

بايداع أولئك الأساقفة سجن الاضطهاد ، آلت العناية الروحية لهـذه المحافل الكنسية الشاغرة الى أيدى جماعة من الأساقفة أو المبشرين الطوافين الذين كانوا لا يتمون عملهم مطلقا ، حتى الاسكندرية ذاتها غدت بلا رئيس روحى منذ أكره بطرس على ترك أسقفيته ٠ فى هذه الظروف العسـرة كان هناك رجل واحد أظهر أنه رجل الساعة هو مليتيوس Melitius أسقف أسيوط Lycopolis ، فلم يكن ينتقل بين هذه البيع اليتيمة فحسب ، بل راح يعين لها أساقفة جددا(١٥٣) ، غير أن هـذا السلوك لم يكن يتفق وتقاليـد كنيسة الاسكندرية ٠ فنحن نعـلم من سوزومين ان لـكل كنيسة فى الاسكندرية قسيسها وكنائس أخرى فى بعض مدن مصر عليها أساقفتها ، ولم يكن يحق لأحد الانتقال من أسقفيته أو كنيسة الى غيرها ، ثم يقول وتلك حال الاسكندرية دائما(١٥٤) باعتبار أن أسقفها قد احتفظ لنفسه منذ فترة طويلة بهذا الحق فى رئاسة كنائس الاقليم كله ، وذلك شيء أكـده مجمع نيقية فى قوانينه التى أصدرها ، ففى القانون الخامس عشر حرم انتقال الأساقفة والقسيسين والشمامسة من كنيسة لأخرى ، ونص القانون السادس على اعطاء بطريرك الاسكندرية كل الحقوق التى كانت له من قديم على أساقفة مصـر وليبيا والمدائن الخمس(١٥٥) ٠

---

(١٥٠) EVSEB. hist. eccl. VIII, 9.

(١٥١) Ibid. 13.

(١٥٢) Ibid. VII. 32.

(١٥٣) SOCRAT. hist. eccl. I, 24; Lietzmann, op. cit. p. 103; Hefele. op. cit. I, 1. p. 491.

(١٥٤) SOZOM. hist. eccl. I, 15.

(١٥٥) Percival, the seven ecumenical councils, (Nicene and P.N.F.) pp. 15, 32.

وربما يكن مليتيوس قد أراد بهذا العمل أن يجعل من نفسه أسقفا أعلى لمصر وأن ينقل الى أسيوط ما كان للاسكندرية حقا معلوما ، أو لعله أراد الانتقال من أسقفيته الى الاسكندرية(١٥٦) وينبئنا تيودوريت أن هذه الفعال قد نمت الى علم بطرس وهو بعد فى سجنه ، فاستهجن هذا سلوك أسقف أسيوط ومن ثم قرر عزله من منصبه وحرمه(١٥٧) · غير أن الاسقف الأسيوطى لم يذعن لقرار العزل هذا وملأ طيبة والمناطق المجاورة لها فى مصر بالاضطراب والقلاقل على حد قول ثيودوريت(١٥٨) الذى لابد أنه يعنى بذلك استمراره فى تعيين الأساقفة والقسس فى الكنائس الشاغرة ، لأنه يضيف قائلا أنه تجاسر على التدخل فى شئون أسقفية الاسكندرية ذاتها ، فعزل اثنين من قساوستها ورسم آخرين مكانهما(١٥٩) ·

تلك رواية نقلناها عن شتات ما تبعثر حول مليتيوس عند مؤرخى الكنيسة ، على أن هناك رواية أخرى يذكرها ابيفانيوس Epiphanius، وهى تقترب من سابقتها تقول ان بطرس بعد أن قبض عليه ، دخل معه السجن مليتيوس وعدد من رجال الاكليروس ، واستمر الاضطهاد فترة من الزمن نال فيها فريق من المسيحيين الشهادة بينما اشترى البعض الاخر أنفسهم وأموالهم بأن قدموا الأضحيات على مذبح أرباب الوثنية · وهكذا حرم هؤلاء بسلوكهم أنفسهم من الكنيسة ، غير أنهم سرعان ما ندموا بعد ذلك واجتهدوا ليقبلوا فى الكنيسة ثانية عن طريق طلب الشهادة ،وكان على رأس هؤلاء مليتيوس الذى أظهر اتجاها متذبذبا ــ على الاقل ــ طوال فترة الاضطهاد ، ثم اختط لنفسه طريقا متشددا بعيد الاضطهاد ، بينما ترأس بطرس قبل موته وخلفاؤه فريقا آخر تبنى الاتجاه المعتدل ، وكانت مسألة الخلاف بين الفريقين هى قبول الخطاة ثانية فى الكنيسة ، وهكذا وجدت كنيسة للشهداء يتزعمها مليتيوس تقف والضد من الكنيسة الكاثوليكية(١٦٠) ولما أن راح أسقف أسيوط يرسم الأساقفة من لدنه غافلا بذلك عما جرى عليه

---

(١٥٦) Hefele, op. cit. I, 1, p. 501.
(١٥٧) THEOD. hist. eccl. 1, 8.
(١٥٨) Id.
(١٥٩) Id.; Duchesne, op. cit. II, pp. 98-99.
(١٦٠) S.M. Jackson. op. cit. VII, art. Meletianism.

العرف فى الكنيسة السكندرية ، لم يكن أمام بطرس الا ان يصـــدر ضـده قرارى العزل والحرمان ، وتلك كـها مسائل أوقفتنا عليها رسالة مجمع نيقية الى كنيسة الاسكندرية بخصوص هذا الأمر(١٦١) ٠

ويمكننا التوفيق بين هاتين الروايتين اذا ذكرنا ما أورده لنا ابيفانيوس عن أصل هذا الخلاف ، مما أوجد هذه الهوة العميقة بين بطرس وملیتيوس، فاختط الأخير لنفسه طريقا مخالفا ،وأخذ يعين الأساقفـــة والقسيسين فى بعض الكنائس مما اضطر بطرس الى عزله وحرمانه ٠

ذلك مشهد ثالث يكاد يطابق تماما ما حدث فى روما وأفريقيا ، أعنى المسألتين ، النوفاتية والدوناتية ، فنقطة ثار حولها الجدل عند هذه الفرق واحدة ، وموقف كنيستى روما والاسكندرية تجـاه آراء الفريق المضـــاد متفقة ، وما نجم عن هذا الصراع من قيام كنيسة الطهار عنـــد الدوناتيين وكنيسة الشهداء لدى الملیتيين وثيق الصلة ، لذلك ليس من غريب الحديث أن يقال ان الملیتيين كانوا بمثابة دوناتيى مصر(١٦٢) ٠

ولا شك أن فتـــرة الاضطهاد التى قاست منها المسيحية لزمن طويل بعامة ، ولفترة عنيفة أخيرة بخاصة ، قد أحدثت فى الكنيسة كثيرا من أمور الجدل حـــول العقيدة والتخاصم حول مسائل التنظيم الكنسى ، وأورثت الكنيسة الجامعة شقاقا ما بعـده شقاق ، ورزقتها بعـــدد لا حصر له من الفرق المخالفة فى الرأى ، ساعد الأحداث على الاتيان بها ، ما رفلت فيـه المسيحية بعد التسامح من حلل العيش ورغـده ، فطفرت الى السطح أمور كانت كامنة ، وتولدت عنها مشاكل مـ كانت قائمة ٠

كان على مجمع نيقية أن يعالج هـــذه المسألة بحزم حتى لا يستفحل خطرها ، أما الامبراطور فلابد أنه قـــد أفاد مما وقع له فى أفريقيـــا مع الدوناتيين ، فمجمع مكانى عقد فى روما سنة ٣١٣ لم يكن كافيـــا لشجب النزاع الدوناتى الكاثوليكى ، ومجمع يقترب من العالمية فى آرل سنة ٣١٤

---

(١٦١) THEOD. hist. eccl. I, 8.
ATHANAS. Apol. C. Arian: 59. أيضا

(١٦٢) C.A.H. XII, p. 697; Duchesne, op. cit. II, p. 113.

لم يكن سعد حظا من سابقه ، وقضاء امبراطورى فى القضية فى ميلانو سنة ٣١٦ م رد الفريق الدوناتى ولا أتى بجديد فى عالم الصفاء مع الكنيسة الكاثوليكية ، بل كل ما جاء به عنفا بلا هوادة وتحديا صريحا لسلطة الامبراطور ذاته ، واضطهادا مسيحيا ضد أشياع كنيسة الطهار لم يثمر ثمرته الرجوة ، هكذا أدرك قسطنطين أن لا طريق أمامه سوى الصفح والمهادنة ، فأفرج عن الدوناتيين وأعاد اليهم بيعهم علهم بذلك يقدرون له حسن الصنيع ٠

كانت تلك تجربة أفاد منها قسطنطين ، فلم يقدم على شىء من هذا على الاطلاق فى معاملته للمليتيين فى مصر ، وساعده قدره وفكره بعقد هذا المجمع المسكونى الكبير الذى ضم أساقفة الشرق والغرب ، فراح قسطنطين يحث الجمع على اتخاذ سبيل وسط يرضى هذا ولا يغضب ذاك ، وعمل الحضور بنصح الامبراطور ، وقد حفظ ثيودوريت ما تم بشأن المليتيين فى مجمع نيقية فى وثيقة هامة هى رسالة المجمع الى كنيسة الاسكندرية جاء فيها :

« أحباءنا ٠٠ ها نحن الان نخبركم بما قر عليه رأى المجمع فى هذا الصدد ٠ لقد تقرر بواسطة مجمعنا أن يعامل بالرأفة مليتيوس ، مع أنه ، وحتى تكون مع أنفسنا صادقين ، ما كان يستحق من الشفقة أقلها ، لقد سمح له بالبقاء فى مدينته مجردا من كل سلطة تجيز له تعيين الغير أو سيامتهم ، محروما حتى الظهور فى أية ولاية أو مدينة لهذه الدواعى ٠ ولكن ليحمل لقبه عاريا من كل نفوذ »(١٦٣) ٠

هكذا التقت آراء المجمع على أمر قد قدر ، فذلك هو الجزاء الذى تلقاه مليتيوس جزاء خروجه على كنيسة الاسكندرية وأسقفها ، تخالف ما شهدناه قبلا فى موقف مجمعى روما وآرل وموقف قسطنطين ازاء الدوناتيين ، و لا شك أن هذه السياسة الجديدة التى لجأ اليها مجمع نيقية تجاه المليتيين كانت رد فعل صريحا لفشل السياسة التى سار عليها الامبراطور

---

(١٦٣) THEOD. hist. eccl. I, 8.

فى علاجه للمشكلة الدوناتية ، ومن ثم فقد منح المجمع مليتيوس من اللقب اسمه وسحب مضمونه ، وأعطاه من الوظيفة الكهنوتية رتبتها وحرمه جوهرها !!

وأضافت رسالة المجمع :

« أما أولئك الذين رسموا على يديه فعليهم أن يمروا من جديد برسم تقى ، على أن يقبلوا ثانية فى الكنيسة ، وتبقى لهم رتبتهم الكهنوتية فى سائر الأبروشيات على أن تكون فى مرتبة أدنى من تلك التى منحت لغيرهم من قبل على يد اسكندر ، زميلنا الكاهن المبجل ، وعليه فليس لأولئك حق اختيار أو تعيين آخرين للكهنوت أو الاقدام على أى شىء دون موافقة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية(١٦٤) الرسولية المنضوين تحت نفوذ اسكندر .

ولكن هؤلاء ، من بنعمة الله ، وفضل صلواتكم ، لم يدنسهم تيار الانشقاق ، فظلوا طاهرى الذيل فى الكنيسة الرسولية الجامعة ، فلهم سلطة اختيار وتعيين من يرون الصلاح فيهم للوظائف الكنسية ، بل ويسمح لهم بما هو ابعد من ذلك فى التصرف فى أى أمر يتفق وقانون الكنيسة وسلطانها ، فاذا ما شاء القدر واختطف الموت واحدا ممن يقدمون الان احدى الوظائف

---

(١٦٤) حتى منتصف القرن الخامس كان لفظا كاثوليكى Catholicus (عالمى) وأرثوذكسى Orthodoxus مستقيم) يطلقان على الكنيسة عامة ، على اعتبار أنها كنيسة واحدة جامعة ذات ايمان قويم . وفى سنة ٤٥١ عقد مجمع خلقيدونية وصدر عنه قانون الايمان القائل بكمال الطبيعتين الالهية والبشرية فى المسيح ، ورفضت كنيسة الاسكندرية هذا المعتقد ، وبقيت على عقيدتها القائلة بطبيعة واحدة من طبيعتين ، كما آمن بها اسقفها كيرلس Cyrillus وخليفته ديوسقوروس ، واختصت منذ ذلك الحين بلقب الأرثوذكسية . وان كانت قد شاركتها فيه كنيسة القسطنطينية أيضا بالأرثوذكسية الخلقيدونية . أما كنيسة روما فقد احتفظت لنفسها بالصفة الكاثوليكية ، وتدعم ذلك فى عام ١٠٥٤ عندما وقع الانشقاق الأعظم بين روما والقسطنطينية نتيجة للخلافات العقيدية المتراكمة ومن بينها مسألة الروح القدس التى تعود الى القرن التاسع ، عندما أضافت روما على قانون الايمان عبارة « والابن » Filioque .

الكنسية ، فليرتق الجدد الى شرف الراحلين اذ كانوا للمنصب مستحقين ، وعلى يد الرعية مختارين ، ما دام هـــذا يثبت بموافقة أسقف الاسكندرية الكاثوليكى »(١٦٥) ٠

لم يقف قرار المجمع اذن فى هـذه المسألة عند حد التعرض للمشكلة الليتية فى حد ذاتها ، ولكنه تخطاها ، آخذا من احداثهـــا مدارا لمزيد من قرارات التنظيم الكنسى حول تعيين القسس والأساقفة فى مختلف الكنائس، ولا شك أن دافعه الى ذلك حرص الحضور على أن لا تتكرر فى الاسكندرية أو غيرها من مدن الامبراطورية تلك الحوادث التى جرت من قبـــل على يد مليتيوس من قيامه بسياسة أساقفة وقسيسين ٠

ثم تعود الرسالة فتعرج بعـــد ذلك ثانية على الرجل فتقول « أما عن مليتيوس على أية حال ، فهناك استثناء قد وقع ، بسبب عصيانه السالف ، ونتيجة مزاجه المتهور وطبعه الطائش ، ذلك لأنه ان منح اقـل سلطان فانه سوف يسىء استغلاله باثارة الاضطراب من جديد »(١٦٦) ٠

« بعـــد أن يخبر المجمع السكندريين فى رسالتـــه بأن أسقفهم سوف يروى عليهم تفاصيل ما دار فى المجمع وما قر عليه رأى رجـــال الاكليروس حضور نبقية ، ويزف اليهم بشرى الاتفاق على تحديد يوم للاحتفـــال بعيد الفصح تشترك فيه كنائس شرق الامبراطورية والغرب(١٦٧) يختتم المجمع رسالته بقول الأساقفة :

« فلتفرحوا اذن لنجـــاح ما تعهدنا القيام به ، ولتبتهجوا بسلام عام ووفاق ، واستئصال لدنس الهرطقة ، ولتستقبلوا بشرف عظيم وبحب متقـد اسكندر محبوبنا ، أسقفكم الذى حلب على مجمعنا البهجة بحضوره ، والذى رغم تقدم العمر به لقد تحدى المشاق والمتاعب بغية اعادة السلام اليكم ٠

صلوا من اجلنا حتى يبقى ما اتفقنا عليه ثابتا وطيد البنيان بنعمة ربنا يسوع

---

(١٦٥) THEOD. hist. eccl. I, 8.

(١٦٦) THEOD. hist. eccl. I, 8.

(١٦٧) Id.

المسيح ، ان كل ما اتممناه بنعمة الله الآب وبوحى القدس صار ٠٠ له المجد أبد الآبدين »(١٦٨) ٠

على هذا النحو اتم مجمع نيقية أعماله وارتحل الأساقفة عائدين الى كنائسهم يسبحون بحمد الامبراطور مبعوث الرب الذى أغدق عليهم نعمه ، فجعلهم يرفلون فى رغد من العيش وسعة ، ولا شك أن قسطنطين كان يرمى من وراء هذه السياسة الى جعل هؤلاء الأساقفة حملة مشاعل الدعاية لحكمه وتقوية سلطانه فى أرجاء الامبراطورية بما يملكونه من تأثير على نفوس رعاياهم ٠ وقد آتت هذه السياسة أكلها ، وآمنت الكنيسة بأن قسطنطين « مبعوث الرب » حاميها ، وباعث حياتها ، ورفعته مكانا عليا ، الى الحد الذى تطوع فيه واحد من أشهر أساقفتها فى زمانه ، أعنى يوساب القيسارى ، ليضع عنه كتابا يرفعه به الى مصاف الرسل ، جاعلا منه الحوارى الثالث عشر ٠

خيل للامبراطور ساعتئذ أنه قد حقق بذلك أعظم انتصاراته ، فقد تبدى له أنه حفظ على الامبراطورية وحدتها سياسيا وعقائديا ، وأنه أعاد بذلك السلام الى الكنيسة وانجاها من شر مستطير كاد يؤدى بوحدتها وبالتالى يهدد أمن الدولة وسلامتها ٠ ولقد تحمل قسطنطين العبء الاكبر ٠ بل العبء كله فى الاعداد لهذا المجمع الكبير ، وأثناء انعقاده وبعده ، ولعب دورا هاما وشارك مشاركة ايجابية فى كل حركة وسكنة من أداء المجمع ، فحقق بذلك رغبته التى أبداها فى رسالته التى بعث بها الى الأساقفة يدعوهم للحضور الى نيقية ٠

ولقد وضع قسطنطين بسياسته هذه فى الدعوة لعقد المجامع سنة سار عليها خلفاؤه من بعد ، فما من مشكلة عقائدية عنت للكنيسة الا ووجهت الدعوة لعقد مجمع مسكونى لبحث هذا الأمر ، ولم تكن الدعوة بطبيعة الحال صادرة من رأس الكنيسة أو من غيره ، بل موجهة من الامبراطور ذاته ، حتى بلغ عدد المجامع المسكونية التى عقدت فى الكنيسة الشرقية سبعة على مدى أربعة قرون بين عامى ٣٢٥ ، ٧٨٧ على عهد الامبراطورة ايرين ٠

---

(١٦٨) Id.

وعلى هذا النحو أيضـــا وضع قسطنطين قواعد القيصرية البابوية Caesaropapism التى بلغت فى عهـد من جاء بعـــده من الأباطرة شأوا عظيما ، وأضحت الكنيسة الشرقية فى هذا السبيل دائرة من دوائر الحكومة وأسقفها موظفا كبيرا لدى الامبراطور ، وتمتع هذا بسطوة واسعة وسلطان كبير على الكنيسة ورجالاتها الذين أضحوا فى غالب فترات تاريخ الكنيسة الشرقية جند الامبراطور ٠

واذا كان هذا حال أسقفية القسطنطينية والكنائس التابعة لها بصفة خاصة ، فان الكنائس الأخـرى فى النصف الشـــرقى من الامبراطورية ، والاسكندرية على رأسها لم تكن كذلك أبدا ٠ فأساقفـــة الاسكندرية كانوا يعرفون يقينا ويقدرون مركز كنيستهم فى عالم المسيحية ، ومدينتهم فى دنيا الفكر والحضارة ٠ فاذا كانت القسطنطينية تحاج بأنها مقـــام الأباطرة ، وأنها نشـأت على المسيحية ، ولم تدنس جبهتها لوثن ، وأنطاكية تتعالى بأن القديس بطرس هو الذى وضع عمد الكنيســـة فيهـــا قبـــل روما ، فان القديس مرقس الانجيلى ، ابن بطرس بالتبنى ، وتلميـذه ، ورفيقه ، هـــو الذى رفع القواعد من كنيستها ، ولكنها الى جـانب كل ذلك كانت تتسامى بمدرستها اللاهوتية الشهيرة ، وفكر آبائها ، ولم تكن القسطنطينية أو غيرها من مدن الامبراطورية تستطيع أن تتطاول الى هـــذه المكانة ، بل ان عالم المسيحية كله فى هذه القرون الباكرة من عمـــر المسيحية ، كان يسعى الى الاسكندرية ينتظر فى أمر العقيدة ، القول الفصل من كنيستها ٠

من أجل هذا ، وللخلاف العقيدى الدائم بين القسطنطينية والاسكندرية بخاصـــة ، وقفت كنيســـة الاسكنـدرية تعارض الاباطرة الرأى وترفض تهديداتهم ، وشهد تاريخها حتى القرن السابع صـــراعا عنيفا بين أباطرة بيزنطة وأساقفة الاسكندرية ، لم تستسلم فيـــه الاسكندرية طيلة هـــذه الفتـرة(١٦٩) ٠

فاذا ما تجاوزنا الاسكندرية ، وحاولنا أن نبحث عن الأســـباب التى

---

(١٦٩) سوف نفرد لهـذا الموضوع بمشيئة اللـــه الكتـابين الثالث والخامس من الدولة والكنيسة ٠

دفعت الكنيسة بعامة على عهد قسطنطين الى تقبل هـذا الوضع الجديد فى العلاقة بينها وبين الدولة طائعة قانعة ، لأدركنا على الفور الحـال التى كانت عليها قبـل قسطنطين ، ثم ما كان من أمر تعاطفه مع المسيحية ، وما أغدقه على رجالاتها من أنعمه وعطاياه ، وما أغرق فيه الكنيسة من المنح · ومن ثم فما كان للكنيسة اذن أن ترفع الرأس بعـد ذلك معارضة عاصية ، ولكنها أسلمت أمرها وقيادها الى ذلك الامبراطور الذى أمسك بتلابيب هذه الفرصة الكبيرة وأشاع فى عقول معاصريه وخلفه أنه مبعوث العناية الالهية لاحلال السلام على الأرض ، وأن الرب قد اختاره من بين عباده وعهد اليه بحكم هذه الامبراطورية ، وذلك شىء نلمسه فى رسـائل قسطنطين وخطبه العديدة · ويقول نورمان بينز : « لابد أن نعى أن قسطنطين كان قبل كل شىء امبراطورا رومانيا ورجل سياسة ، وكانت سياسته الدينيـة جـزءا من سياسته الامبراطورية ، فهذه كانت قائمة فى فكره على تصور بانه المبعوث خدمة لرب المسيحيين(١٧٠) ·

ولا يمكن أيضا انكار الدور الذى لعبه شيخ مؤرخى الكنيسة فى هذا السبيل ، فكتابة العاشر من تاريخـه الكنسى يدل على أن قيـام الدولة والكنيسة قد بدأ سويا فى وقت واحد ، ولذلك نراه يتحدث بنغمة التفـاؤل والحبور ، أما « حياة قسطنطين » فكله دعائية للامبراطور « محبوب الرب » و « مبعوثه » الى البشر ، وقد آتت كتابات يوساب القيسارى ثمارها فى حقل الكنيسة وبين رجالاتها ، وكان لها أكبر الأثر فى بنيان العلاقة بين الكنيسة والدولة ·

---

(١٧٠) C.A.H. XII, p. 698.